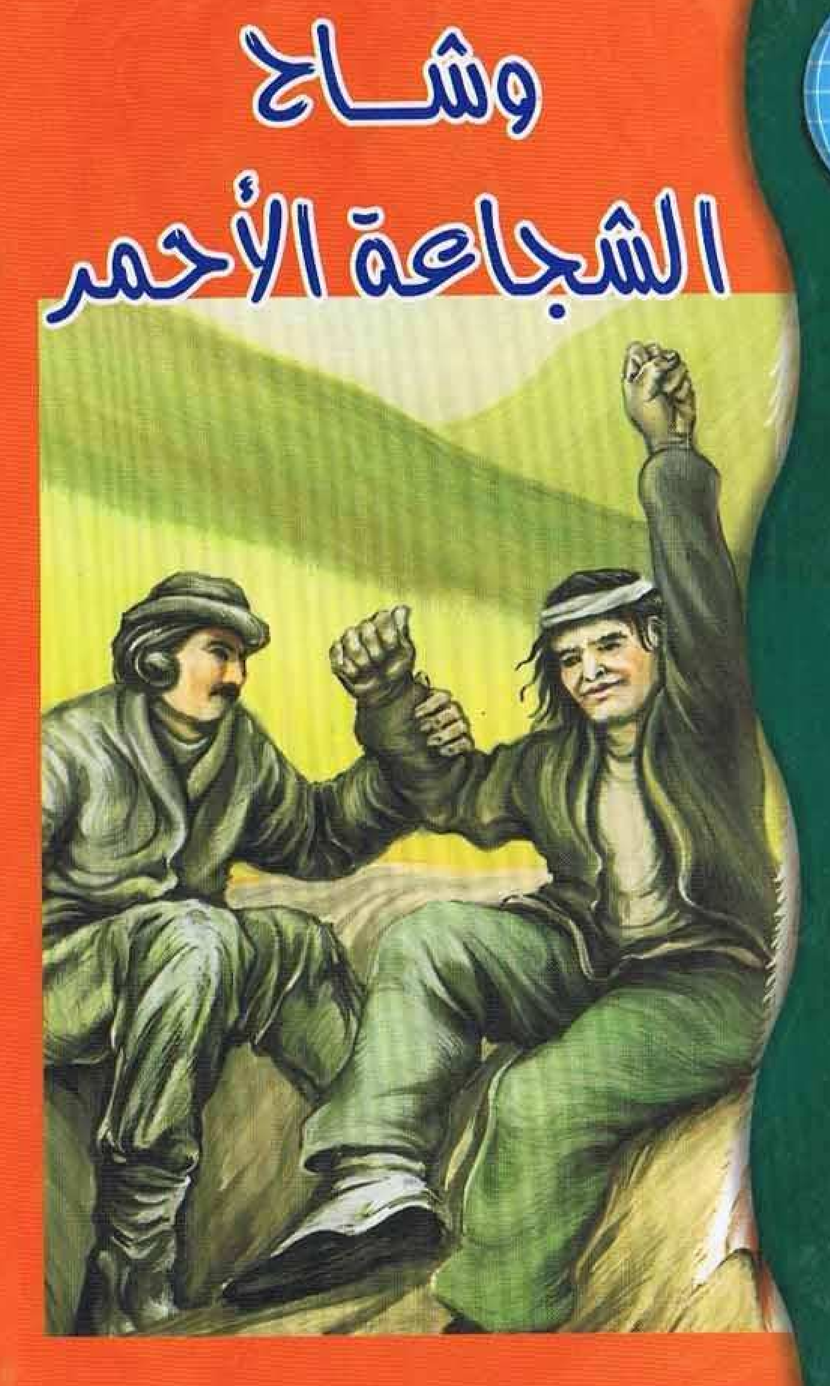
وشـــاح الشجاعة الأحمر



ستيفن كران

المكتبة العالمية للفتيان والفتيات

دار العلم للملايين

المكتبة العالمية للفتيان والفتيات

وشاح الشجاعة الأحمر

دار العلم للملايين





هذه الرواية

❖ تسطّر هذه القصة وقائع حياة هنري فليمنغ، ذاك الجنديّ الشابّ الذي لم يخبر الحياة بعد، وكيف شارك في الحرب الأهلية الأميركية، وأحلامه الرومانسية لتحقيق بطولات في حرب يخوض غمارها للمرّة الأولى في حياته. بَيْدَ أن وقائع الحرب الوحشية بدّدت أوهامه وأكسبَته خبرة ومعرفة في الحياة وعلّمته القيمة الحقيقية للشجاعة.

ISBN 9953-9-6533-1 2.5 كتب الفتيان والفتيات

9 789953 965338 8

المكتبة العالمية
للفتيان والفتيات

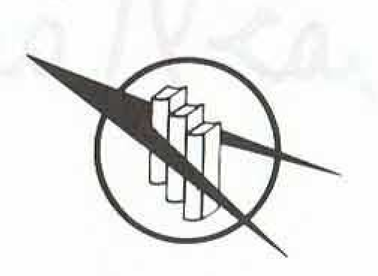
وشاح الشجاعة الأحمر

ستيفن كران

دار العلم للملايين

دار العلم للملايين
مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس، بناية متكو، الطابق الثاني
هاتف: ٣٠٦٦٦٦ - ٧٠١٦٥٥ - ٧٠١٦٥٦ (٠١)
فاكس: ٧٠١٦٥٧ (٠١)
ص.ب ١٠٨٥ بيروت - لبنان
www.malayin.com



الطبعة الأولى
أيار/مايو ٢٠٠٢

الفصل الأول

مرَّ البردُ بطيئًا فوق الأرض وانقشَع الضباب ليكْشِفَ عن جيش منتشر فوق التلال في حالة استرخاء. ومع تغيّر لونِ المشهد الطبيعيِّ من البنّيِّ إلى الأخضر يستيقظ الجيش ويبدأ أفرادُه في ترديد الشائعات وهم يرتعشون من البرد. أمّا مدار الشائعات فهو متى يبدأ القتال. كيف لا وقد كانت معسكراتُ العدوِّ تلوح أمامهم فوق قمم التلال البعيدة.

قال أحدُ الجنود مؤكّدًا لمنْ حولَه: «سنتحرَّكُ غدًا بالتأكيد... سنشقُّ طريقَنا ونعبرُ النهرَ ونأتيهم من خلفِهم». وراح يقُصُّ على مستمعيه الذين كانوا يصْغون إليه باهتمام خُطَّةً مُحْكمةً لحملةٍ باهرة. وبعد أن فرَغَ من حديثه تفرَّق الجنودُ بملابسهم الزرقاء زُمرًا صغيرة بين صفوف الأكواخ البنّيَةِ القميئة.

قال جنديٌ آخر بصوت عالٍ: «إنه يكذب». وتابع وقد بدا عليه الاستياء: «لا أعتقدُ أنّ الجيشَ سيتحرّك. نحن باقون. لقد استعدَدْتُ ثماني مرات للتحرّك من قبلُ وها نحن لم نتحركْ بعد».

وجد الجنديُّ الأوّل نفسَه مضطرًا للدفاع عن إشاعة هو أطلقها، وكاد يتشابك بالأيدي مع الجنديِّ الثاني.

أكَّد عريفٌ في الجيش أن الهجومَ قد يبدأ في مُسْتَهلِّ الربيع. فيما راح آخرون يتحدّثون عن الخُطَطِ التي وضعها القادة. وكان هناك جنديٌّ شابٌّ يُصغي لكلماتِ مَن حولَه وتعليقاتِ رفاقه. وانْسلَّ فجأة إلى كوخه من خلال فَجوةٍ كان يستخدمها كباب للكوخ. كان يريد أن يخلو إلى نفسه، فقد كان في حالة من الذهول. وراح يفكِّر في أنَّه مع رفاقه سيشارك أخيرًا في القتال، وربما يكون غدًا في حماةِ المعركة. كان يحلم بالمعارك طيلة حياته.. بالمعارك الضارية التي تهز أعماقه. وكان يتخيَّلُ نفسه يقاتل قتالاً ضاريًا يجعلُ الآخرين يتوارون خوفاً منه. ولكن عندما كان يستفيق إلى نفسه كان يعتبر المعاركَ أعمالاً مشينة قد ولَّت. فالفترة التي شهدت الحروب في التاريخ اختفت إلى الأبد ولن تعود. والملاحمُ التاريخيّة التي سمع عنها باتت شيئًا من الماضي. ومع هذا فهو ما زال يتطلَّعُ إلى تلك الملاحم بشغف.

بيْدَ أنَّ أمّه لم تكن تُشَجِّعهُ، فقد كانت تنظر بشيء من الازدراء إلى الغاية من تلك الحرب التي يريد أن يشارك فيها. وكانت تنصحُهُ بمختلف السُّبُلِ بأنّ العمل في المزرعة أكثرُ فائدةً من ساحة القتال. وكانت تحاول أن تُقْنِعَهُ بأن رأيها في هذه المسألة يستند إلى حقيقة راسخة.

ومع هذا فهو لم يقتنع. وذات يوم فاجأ والدته قائلاً: «أمّي أنا ذاهبٌ لأتطوّعَ». قالت له: «لا تكن أحمقَ، يا هنري».

أصرَّ مع هذا على الذهاب في اليوم التالي إلى المدينة القريبة من مزرعة أمِّه وتطوَّع في سَرِيَّة كان يجري تشكيلها هناك. وعندما عاد إلى البيت كانت أمُّه تَحْلِب البقرة. قال لها وهي تكاد لا تصدِّقُ ما تسمع: «أمي.. لقد تطوعت». وساد صمتٌ قصير قطعتْه بقولها: «إنها إرادة الله!»

كان قد حضَّر بعض الكلمات التي يمكن أن تكون ذات وقْعٍ لديها، ولكنّ كلمتها قطعت عليه الطريق. قالت له وهي تتابع عملها: «انتبهْ إلى نفسك يا هنري وخذ حِذْرَك في القتال، فأنت مجردُ مقاتلٍ غرٍّ وَسْطَ مجموع هائل، وعليك أن تلتزمَ بما يقولونه لك فأنا أعرفُكَ يا هنري: كن حذِرًا واخترْ رفاقك، فثمّةَ أشرارٌ كثيرون في الجيش، لأنّ الجيش يجعلهم متوحشين.. ابتعد عن أمثال هؤلاء يا هنري، ولا تفعل شيئًا يجعلك تخجل من ذكره أمامي، تخيّل دومًا أنني أراقبك. إذا التزمتَ بما أقولُهُ لك فستكون على ما يرام»، وتابعتْ تقول:

«المقاتلون الأغرار لا يتصرّفون بحذر عادة، وغالبًا لا يجدون من يهتمُّ بهم، إنني خائفةٌ عليك، لذا اكتبْ لي دومًا عن أحوالك، وتذكَّر والدك دومًا، وكيف كان على الدوام رجلاً مستقيمًا».

وأوصته بأن يأخذَ إنجيلاً صغيرًا معه، كما وضعت في جعبته



علبة من المربّى الذي يُحبُّهُ. وودَّعته قائلة: «خذْ حِذْرَكَ وكن فتًى طيبًا».

كان يستمع إلى والدته بصبر نافد. ولكنّه عندما التفت إليها عند البوّابة رأى الدموع في عينيها فأحنى رأسه لها وانصرف يخامِرُهُ شعورٌ بالأسى.

انطلق من البيت متّجهًا إلى المدرسةِ الثانويّة ليودِّعَ الكثيرينَ من زملائه الذين احتشدوا حوله بدَهشة وإعجاب، فشعر بالراحة وسطهم وامتلأ فخرًا.

كانت روحُه المعنويّةُ عاليةً وهو في الطريق إلى واشنطن. وكان فوجهُ يُكرَّمُ في كل محطةٍ يمرّون بها، وكان يوزِّع عليهم الخبز واللحوم الباردة والقهوة والجبن بسخاء.

بعد رحلة طويلة جاءت فترة طويلة من الحياة الرتيبة في المعسكر. كان يعتقد أن الحرب الحقيقيّةَ هي سلسلةٌ من الأعمال القتالية المميتة يتخلّلها فترات قصيرة من النوم والوجبات، ولكنّه اكتشف أن فوجه منذ أن وصل إلى الميدان لم يفعل شيئًا سوى البقاء ساكنًا.

كان الجنودُ القدامى يقصُّون عليه الكثير من القصص الغريبة عن وحشية بعض القبائل المحيطة بهم، ولكنّه لم يكن يُصدِّق ما يروونه. فقد كان يعرف أنّهم كانوا يعتبرونه غِرًّا، ويحاولون أن يتفاخروا أمامه.

لم يعدْ يعنيه الآن أيُّ نوع من الجنود سيقاتل. كان يعنيه أن يُثْبِتَ أنّهُ لن يفرَّ من المعركة. فقدْ بدا له فجأة أنه قد يفعل ذلك ووجد نفسه غير واثق من نفسه. كان يُخامره شيءٌ من الذعر. وعندما كان يتخيَّل القتالَ كانت تخطر بباله احتمالاتٌ فظيعة.

نهض من على الدكَّة وراح يذرعُ الغرفةَ جيئة وذهابًا وهو يتساءل: «يا إلّهي، ما الذي جرى لي؟» وشعر وهو في هذه الأزمة أنّ قوانينه في الحياة عديمة الجدوى، وأن ما تعلَّمَه عن نفسه أصبح هنا لا قيمة له.

في تلك الأثناء دخل الجنديُّ الطويل الخيمة. سأله هنري: «هل ستكونُ هناك معركة حقًّا يا جيم؟» فأجابه الجندي الطويل: «طبعًا ستكون هناك معركة، انتظرْ فقط حتى الغد.. ستشاهدُ القتال هذه المرة يا ولدي». وتابع يقول: «ألم يغادر الفرسانُ جميعُهم هذا الصباح؟ لم يبقَ أحد منهم في المعسكر. إنهم ذاهبون إلى ريتشموند».

صمت الشّابُّ قليلاً ثم قال يخاطبُ جيم: «ماذا تظن الفوج سيفعل؟»

ـ «أحسب أنّهم سيقاتلون جيدًا عندما يدخلون المعركة».

ـ «وهل تحسب أن بعض الفتيان سيهربون؟»

ـ «أوه، قد يكون هناك قليل منهم، ولكنَّ أمثالَهم موجودون في

كل فوج، وخصوصاً عندما يدخلون معركةً لأوّل مرّة. نعم قد يحدث هذا.. ولكنّني أعتقد أنّهم سيحاربون أفضلَ من غيرهم.. يقولون عن الفوج إنّه غِرّ، ولكنّ أفراده عناصرُ جيّدة.. وهم سيقاتلون بشراسة عندما تُطْلَق عليهم النيران».

الفصل الثاني

في صبيحة اليوم التالي اكتشف الفتى أن رفيقَه الطويل كان على خطأ، وأنه كان موضع استهزاء من باقي رفاقه الذين لم يصدِّقوا الإشاعة. وأحسَّ الفتى أن المشكلة ستلازمه طويلاً دون حل، بل إنها ستطول وتطول. وظل لعدة أيام يُقلِّبُ الأمورَ على وجوهها واكتشف أنه لا يستطيع الوصول إلى شيء.

كان يحاول دومًا أن يُقارِنَ بين نفسه ورفاقه. لقد أعطاه ذاك الجندي الطويل بعض الثقة بنفسه. وكانت مثلُ هذه المقارنة تُدْخِلُ بعضَ السرور على قلبه. وكان يحلو له أحيانًا أن يسبر أغوارَ رفيقٍ من رفاقه من خلال بعض العبارات الخلابة. ولكن محاولاته أخفقت في تأكيد ما كان يُخامره من شكوك. وفي علاقته مع زملائه كان يتنازعه رأيانِ. كان يعتقد أنّهم جميعًا أبطالٌ ويُقرّ ضمنًا بأنّ بعضهم يتمتع بكفاءات عالية. ولكنّهُ كان يغالط نفسه أحيانًا مُعتبرًا إيّاهم مجرَّدَ أناسٍ عاديّين.

كانَتْ عواطفُه تجعله يرى نفسَهُ غريبًا وَسْطَ رجال يتحدّثون بحماسة عن معركة منتظرة كما يتحدّثون عن مسرحيةٍ سيشاهدونها وقد ارتسم على وجوههم الشوق. وكثيرًا ما شكَّ في أنهم كاذبون.

لم تكن تنتابُه مثلُ تلك الأفكار من دون إدانة قاسية لنفسه. وبسبب قلقه البالغ كان قلبه يضطرب باستمرار بسبب ما كان يعتبره تقاعسًا لا يُحتمَل من جانب القادة. فقد كانوا يبدون في نظره قانعين بالبقاء دون حَراك عند ضفّة النهر فيما هو يعاني من وطأة مشكلة كبيرة يريدها أن تُحَلَّ بأسرع وقت. إنَّه لم يتحمّلْ في حياته وطأة أزمة كهذه. وهذا ما جعله يستشيط غضبًا على قُوّادِه.

وذاتَ صباحٍ وجد نفسه في صفوف فوْجه المتُأهِّب. وكان أفرادُ الفوج يتهامسون بالتكهّنات ويستعيدون الإشاعاتِ السابقة. وظلَّ الفوجُ في حالة سكون فترةً بدتْ له طويلة. كادَ صبرُهُ يَنْفَد، وبدتْ له الأمور تُدار بطريقة غير مقبولة أو محتملة. وراح يتساءل بتبرُّمٍ كم منَ الوقت سينتظرون.

وفيما هو يتطلّع حوله ويرى الوجوم على الوجوه بدأ يعتقد أن المسافة المشؤومة قد تقترب في أيّةِ لحظة، وأن قعقعة الالتحام تقترب من أُذنَيه.

تابع الجنودُ حديثَ التكهُّنات. وجرت بينهم محاورات صاخبة وصلت إلى حد التشابك بالأيدي. وعندما قال الجنديُّ إنّ ما تنبّأ به كان صحيحًا ردَّ عليه آخرون بإصرار بأن الخُطّةَ التي تحدَّثَ عنها ليست صحيحة. واستمرَّ الجدلُ الصاخب.

لم يشارك الشابُّ في جدالهم، فقد كان مستغرقًا مع نفسه في

جداله الداخليّ الذي ما كان يستطيع أن يضع له حدًّا. وكان يتطلّعُ في وجوه رفاقه يحاول أن يَسْبِرَ أغوارَها، وكان يعاني من خيبة الأمل. كانوا يشعرون بالأسى لمغادرة جانب من الجيش عبر النهر ويهنّئون أنفسهم لكونهم القوة الضاربة.

وعند حلول الظلام تفرّق الطابورُ إلى وحداتٍ عِدّةٍ، تفرّقت بدورها في الحقول لتعسكر. وانتصبت الخيام مثل نباتات غريبة الشكل. وأشْعِلَتِ النيرانُ في أطراف المخيم، فبدت مثلَ ورودٍ حمراء تُضيء في الظلام.

تحاشى الشابُ الاختلاطَ برفاقه قَدْرَ الإمكان. وفي المساء كان يتجوّل مسافات قصيرة في الظلام. لم يكن مرتاحَ النّفسِ وتمنى لو أنه يعود إلى البيت ليتمشى بين المنزل والحظيرة جيئة وذهابًا، أو يتجولَ بين الحقول والمنزل. وشعر فجأة بحنين إلى العودة إلى منزله الريفيّ. وقال في نفسه إنّه لم يُخلَقْ ليكونَ جُنديًّا. وفكّر مليًّا بوجود فوارق جوهريةٍ ما بينه وبين أولئك الذين يتحلّقون حول النار.

وفيما هو يفكّر سمع صوت وقع خطوات فوق العشب. نادى الفتى: «أيْ ويلسون»، اقترب منهُ ويلسون، ونظر إليه قائلاً: «مرحبًا يا هنري، أهذا أنت؟ ماذا تفعل هنا؟» قال الفتى: «كنت أفكّر».

جلس الجنديُّ وراح يُشْعِلِ غَليونَهُ بعناية. وتابع يخاطب هنري: «تبدو شديد الشحوب، ما بالك يا فتى؟» قال الفتى: «لا شيء!»

عندئذٍ شرع الجنديُّ يتحدّث عن القتال المتوقَّع: «سنكتَسِحُهُم الآن! سوف نهزِمُهم أخيرًا شرَّ هزيمة!»

قال الفتى ببرودة: «ظننتُ أنّك كنت معترضًا على هذه المسيرة قبل قليل». فشرح الآخر: «لا لم يكن الأمر كذلك، أنا لا أعترض على المسيرة إذا كانت ستؤدي إلى القتال في النهاية، ما أكرهُهُ هو التحرّك إلى هنا وإلى هناك من دون نتيجة سوى العناء وقلّةِ الغِذاء».

ـ «حسنًا إن جيم كونكلين يقول إنه سيكون أمامنا الكثير من القتال هذه المرّة».

ـ «إنّه على حقٍّ هذه المرّةَ على ما أعتقد وإن كنت لا أعرفُ كيف ستجري الأمور، هذه المرّةَ أمامنا معركة كبيرة وسنكسبُها بالتأكيد».

نهض وراح يخطو جيئة وذهابًا بقلق، وقد جعلت حماسته الشديدة خُطواتِهِ مَرِنة. وكان إيمانه بالنجاح كبيرًا.

راح الشّابُ يراقبه بصمت وقال له أخيرًا بحرارة:
ـ «أعتقدُ أنّك ستقوم بأعمال باهرة».

نفث الجنديُّ دُخانَ غليونه بكثافة، وقال: «لا أعرف. أحسب أنّني سأبلي بلاءً حسنًا مثلَ الآخرين. سأحاول أن أكون مثل الرعد».

وبدا كمن يُثني على نفسه من خلال إظهار التواضع.
سأله الفتى: «كيف تعرف أنّك لن تفرَّ حين يحين الوقت؟»

ضحك وقال: «أهرب؟.. أهرب؟ بالطبع لن أهرب!»

ـ «حسنًا كثير من الرجال كانوا يحسبون أنهم سيقومون بأعمال عظيمة قبل المعركة، ولكن عندما يحين الوقت يفرّون مذعورين».

ـ «أعتقد أن هذا صحيح، ولكنني لن أفرّ مذعورًا، ومن يراهن على فراري فسيكون خاسرًا». قال الفتى: «كلام فارغ. أنت لست أشجع رجل في العالم، أليس كذلك؟» قال الجنديُّ مندهشًا: «كلاّ أنا لست أشجعَ رجل وأنا لم أقل ذلك، قلت إنني سأذهب لأشارك في القتال، هذا ما قلته، من أنت على أيّ حال؟ إنك تتكلم كما لو كنت تظنّ نفسك نابليون بونابارت».

حدّق في الفتى عابسًا ثم تركه ومشى.

شعر الفتى بالوحدة عندما غادره رفيقه المجروح. ولعل إخفاقه في إيجاد أي نوع من التقارب في وجهات النظر مع زميله قد جعله أكثر بؤسًا من ذي قبل.

مشى ببُطءٍ إلى خيمتِهِ وغطّى نفسه ببطّانيّةٍ إلى جانب الجنديِّ الطويل الذي كان يَشْخِر. وأثناء نومِهِ تناوبت عليه كوابيسُ كثيرة مرعبة.

الفصل الثالث

خُيِّلَ للشابِّ أنّهم قد يتعرَّضون فجأة وعلى نحو مخيف لانقضاض آتٍ من الكهوف في الغابات المنحدرة. وراح يُحَدِّقُ في الظلام يراقب أيّ تحرك. بَيْدَ أن فوجه بقي مُعَسْكِرًا في مكانه دون أي تحرُّك، وكان الجنود يغطّون في نوم عميقٍ. واستيقظوا في الصباح الباكر بنشاط، واندفعوا نحو طريق ضيّق يُفْضي بهم إلى الغابة. وبعد جهد وعناء حطّوا رحالَهم ووضعوا عنهم الحقائب المعلَّقة على ظهورهم وأسلحتَهم وذخائرهم. قال الجنديُّ الطويل للفتى: تستطيع الآن أن تأكل وتشرب وتنام.. فهذا كل ما تحتاجه.

لقد حصل تطوُّر مفاجىء في أسلوب ذلك الفوج من المشاة فقد تحوّل من أسلوب الحركة البطيئة المتثاقلة إلى أسلوب الحركة الخفيفة السريعة. لقد تخلَّص الفوج من عبءٍ ثقيل وبات لديه حافزٌ جديد. ومع هذا فإنّ الفوج لم يصل بعد إلى المرحلة التي يصبح فيها متمرِّسًا. فالأفواج المتمرِّسة في الجيش تكون عادة مُشكَّلة من مجموعات صغيرة من الرجال.

في فجر أحد الأيام نهض الفتى من نومه بعد أن لَكَزَهُ الجندي

الطويل بقدمه. ولم يجد نفسه إلا وهو يجري في الغابة وسط أقرانه، دون أن يعرف إلى أين يتجهون. علامَ هذا الجري؟ ما الذي حدث؟! كان في حَيرةٍ من أمره وهو يجري مع رفاقه. ولكن كان عليه أن يتابع جريَه حتى لا يسقطَ تحت أقدام من يجْرون وراءه.

نشرت الشمس أشعتها وظهر أفراد الفوج وكأنَّ الأرضَ تنْشقُّ عنهم. وظنَّ الشابُ أنّ وقت المعركة قد حان. وشعر للحظة أنّه يواجه تجربة عظيمة. . كما شعر أنّ من المستحيل أن يحاول الفرار من الفوج. إنّه مُحاطٌ من كلِّ جانب، وهناك أنظمة صارمة. وبدا له وكأنّه في صندوق متحرِّك. وفيما هو يفكّر في ذلك شعر أنّه لا يريد أن يخوضَ أيةَ حرب، وأنّه لم يتطوّعْ بمحض إرادته. لقد اسْتُدْرِجَ إلى ذلك من قبَل حكومة ظالمة، وها هم يسوقونه إلى الذبح. وفيما هم يصعدون الجانب الآخر من الهضبة أخذت المدفعيّةُ تدوّي. وتوقَّع أن يشهدَ معركة. وراحت الأفواج الأخرى تتقدّم ببُطء. واتّخذ اللواء وضعيّة المعركة. وبعد وقفة قصيرة بدأ المناوشون يتقدّمون ببُطءٍ في الغابة.

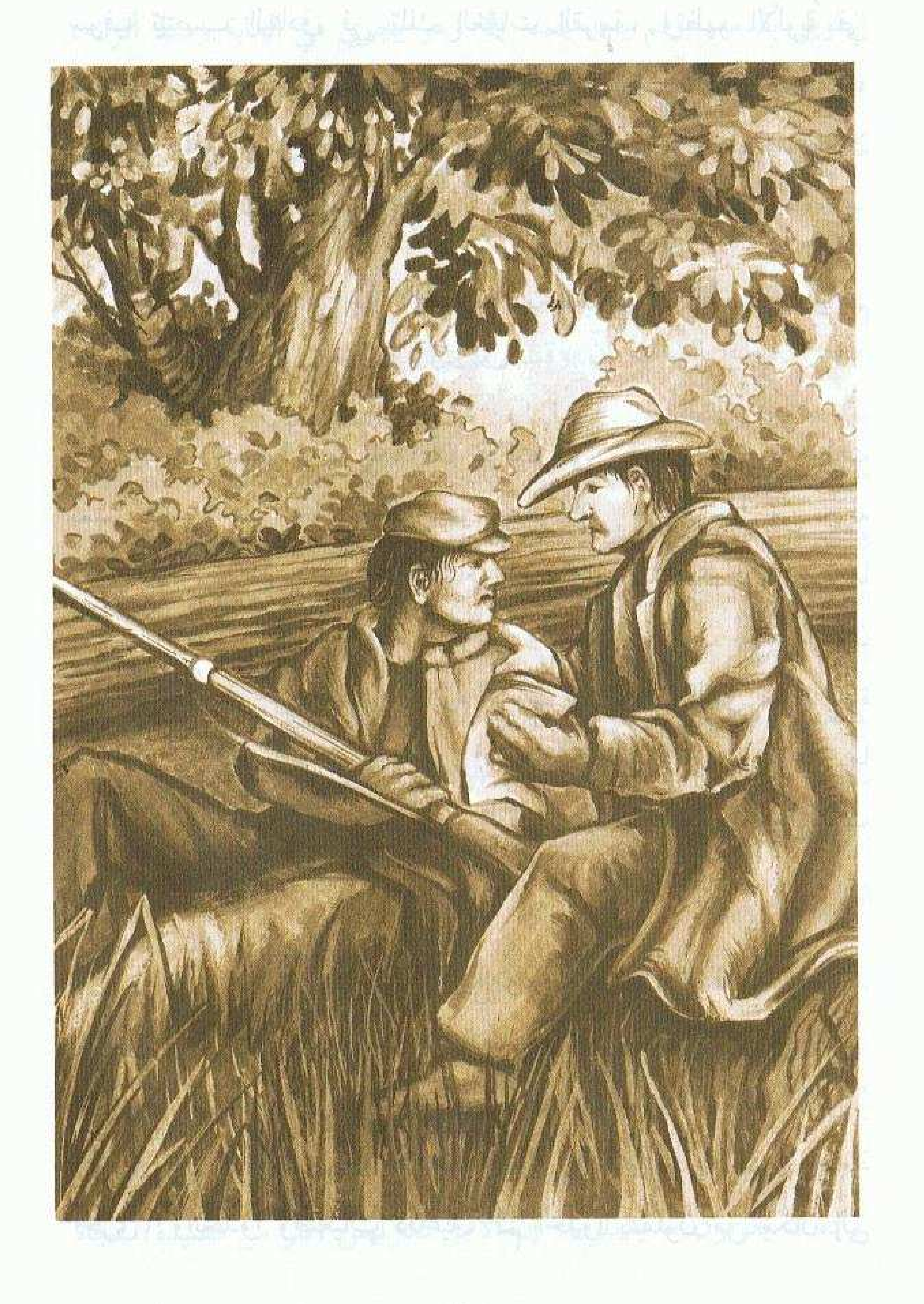
حاول الفتى أن يلاحظ كلَّ شيء. لقد أذهله تقدُّمُ المشاة المقاتلين وراح يُتابع طلقاتهم من خلال الأشجار. ولكنَّ حماستَه سُرعان ما خَبَتْ وأخَذَتْ تعاوده الأفكار السخيفة. وشعر بقُشعريرة تسري في بدنه، وبأنّه مُهدَّد بالخطر. وخطرت بباله فكرة طارئة هي أن القادة لا يعرفون ما يفعلون. إنَّ الأمرَ كلَّه ليس أكثرَ من قصيدة. فجأة

سوف تنتصب البنادق في تلك الغابات القريبة، وتظهر الألويةُ في المؤخّرة. وسوف يقعون جميعًا ضحايا مجزرة. إنَّ القادة حمقى، ولسوف يبتلع العدوُّ القيادة كلَّها. وراح يُحْملِقُ في ما حوله متوقعًا أن يتسلَّل الموت إليه في أيّة لحظة.

وفكّر أن ينشقَّ من بين الصفوف ويخطُبَ في رفاقه محذِّرًا إيّاهم من أنهم سوف يُقتلون جميعًا كالخراف.

بيْد أن الصفوف لم تلبثْ أن تفرَّقت إلى وحدات صغيرة أخذت تمشي بهدوء عبر الحقول والغابات. ونظر الفتى إلى الرجال من حوله وقرأ على وجوههم تعبيراتِ اهتمام بالغ وكأنّهم يدقّقون في شيء ما يَخْلِبُ ألبابَهم. إنّهم يمشون مذهولين كأنّهم لا يعرفون أنّهم ذاهبون إلى حرب. وفوجيء بذلك الملازم الشابّ في وحدته الذي ضربه بقوة بسيفه داعيًا إياهُ بصوت عالٍ إلى الانتظام داخل الرَّتل. وسرعان ما عدَّل الفتى من مِشيته وعاد إلى الرَّتل. وشعر بكرهٍ شديد لذلك الملازم الذي وبَّخَه.

وسُرعان ما أُمِروا أن يتَّخذوا وضعيّةَ القتال الدفاعيّة، فاتَّخذ بعضهم من أكوام الحجارة دريئةً، فيما حفر آخرون حُفَرًا في الأرض. ثم أُمروا أن ينسحبوا بسرعة من حالة الحصار. أذهلت تلك الأوامرُ الفتى وراح يتساءل: لماذا إذن أتوا بنا إلى هنا؟ واتّخذ الجنودُ وضعيّةً أخرى، واتّخذوا وضعياتٍ دفاعية، ثمّ أخذوا يتنقّلون من مكان إلى



آخر. وعرف الفتى أنّ الإنسان يصبح شيئًا آخرَ في المعركة، وأنّ إنقاذ حياته يتوقّف على هذا التبدّل. إلاّ أنّ هذا الانتظار كان بمثابة مِحْنةٍ له. كان يشعُرُ بنفاد الصبر، وبأنّ تحركاتِهم تدلّ على أنّ القادة لا يعرفون مقصدَهم. وراح يشكو لزميله الجنديّ الطويل: «لا أستطيع أن أتحمّل أكثر من ذلك ولا أستطيع أن أفهم لماذا يُنهكوننا تعبًا من أجل لا شيء؟!» وشعر برغبة في العودة إلى المعسكر لأنّ ما يقومون به ما هو إلا تصرُّفاتٍ خرقاء، ومضيعةٌ للجهد والوقت.

وبعد الظهر انسحب الفوجُ بكامله من الأرض التي كان قد احتلّها وأقام فيها في الصباح، وشعر الفتى بشيء من الارتياح. ولكنّه ما لبث أن عاد إلى أفكاره السوداء. وراحَ يفكّر في أنّ الموت قد يضع نهاية لكلّ متاعبه. لا بدّ أن يذهبَ إلى حيث يستطيع الآخرون أن يفهموه. إنّه لا يتوقع أن يفهمَه أو يُقَدِّرَه إنسانٌ مثل ذاك الملازم.

أحسّ فجأة بيد ثقيلة تقع على كتفه. فالتفت إلى الوراء، فوجد أحد رفاقه الجنود يقول له: «إنّها معركتي الأولى والأخيرة أيُّها الفتى».

قال هذا وقد ران على وجهه الحزن وراحت شفتاه ترتعشان... ثم تابع قائلاً: «نعم... ثمّةَ شيء يُنبئني بذلك.. أريدُكَ أن تأخذَ هذه الأشياء إلى أهلي». وسلّم الشاب مُغلّفًا صغيرًا، أصفر اللون.

الفصل الرابع

كان ثمّة لحظاتٌ من الترقُّب. وراح الفتى يفكّرٍ في شارع القرية في بلدته عند وصول السيرك إلى القرية ذات يوم من أيّام الربيع. وتذكَّر كيف وقف، وقد كان طفلاً صغيرًا، يستعدُّ لمرافقة سيدة ما فوق حصان أبيض. وتذكَّر بشكل خاصٍّ رجلاً كبيرًا اعتاد أن يجلِسَ فوق صندوقٍ أمام المخزن ويتظاهر بالاستخفاف بالمعروضات.

صاح أحدهم: «ها هم قادمون!»

سرَتْ همهمةٌ بين الرجال. وتملّكتهم رغبةٌ قويّة في الحصول على أيّ صندوق للرصاص تقع عليه أيديهم.

ها هم قادمون!

عبر الحقول التي يكسوها الدُّخان اندفع حَشْدٌ من الرجال وهمْ يُطلِقون صيحاتٍ صاخبةً، ويصوِّبون بنادقهم في كلِّ اتِّجاه.

ذُهِلَ الفتى وهو ينظر إلى جموعهم وخاف ألاّ تكون بندقيّتُه محشوّة وحاول عبثًا أن يستجمع قواه كي يحشو بندقيّتَه.

اقترب قائدٌ عسكريٌّ يمتطي صهوة جواد من العقيد قائد الوحدة

٣٠٤ وهو يهُزُّ قبضته صائحاً: «عليك أن تدحرهم وتدفعهم إلى التراجع!» فرد العقيد بحماسة: «حسنًا يا سيدي القائد. سنفعل كلَّ ما في وُسْعِنا».

نظر القائد إليه نظرة غاضبة ولوى عنقَ جواده وانطلق.

كان ملازمُ الوحدة يذرع المؤخَّرةَ جيئةً وذهابًا بقلق بالغ وراح يخاطب جنوده قائلاً: «وفِّروا نيرانكم أيّها الفتيان. لا تُطلقوا حتى آمركم. وفرِّوا نيرانكم حتى يقتربوا، ولا تتصرَّفوا بحماقة!»

كان وجه الفتى ينضَحُ عرقًا. مسح عرقَه بحركة عصبيّة بطرف كُمِّه وألقى نظرةً على الميدان الحاشد بالأعداء. ولم يجدْ نفسَه إلاّ وهو يضعُ بندقيّتَه في المكان المناسب للتسديد ويُطلق النار. نسي نفسه تماماً وهو يطلق النار بغزارةٍ ولم يعُدْ يفكِّر بمصيرِه المحفوفِ بالخَطَر. شعر بنفسه وكأنَّهُ شخصٌ آخَرُ تتملّكه رغبةٌ واحدةٌ هي القتال.

كان واعيًا لوجود رفاقه من حوله يقاتلون إلى جانبه وشعر بأخوّة المعركة... أخوّةٍ غامضة تولّدت وسط الدُّخان وخطر الموت. لقد بدأ يشعُرُ الآن بتأثير أجواء الحرب.. العرقُ يتصبّب منه وعيناه تتقدان كجمرتين. وتملَّكهُ غضبٌ شديد وهو يتمسَّكُ ببندقيته، شعر برغبة في الاندفاع إلى الأمام. ووَسْطَ الدخان كان يُطلِقُ النار على المهاجمين وكأنهّم أشباحٌ تتربَّصُ به. كان الجميع يُدافِعون عن أنفسهم وقد ارتسم على وجوههم الغضب الشديد مجبولاً بالتصميم. كانوا يقاتلون بعناد

وتتعالى أصواتهم، ولكنّهم كانوا يشعُرون أنّهم في حاجة إلى مساندة. وصاح أحدهم: «لماذا لا يرسلون إلينا تعزيزات؟»

وراح الرجال يتساقطون هنا وهناك. وقُتِلَ الملازمُ قائدُ الوحدة وارتمى جسدُه على الأرض، وقد ارتسمت على وجهه نظرة حزن.

علَتْ أخيرًا صيحات الفرح وسط صفوف المدافعين. فقد تبعثرت زُمَرُ الأعداء وتفرّقت. وراح بعضُ جنود تلك الوحدة يهتفون بابتهاج بصوت عالٍ. أمّا الشابّ فقد شعر بعد زوال نشوة النصر أنّه يكاد يختنق. فقد أدرك الآن فظاعةَ الجوّ الذي كان يقاتل فيه.

أمّا باقي الجنود فقد كانت تتردّد على ألسنتهم بابتهاج جملةٌ واحدة: «لقد دحرناهم.. رددناهم على أعقابهم». عندئذٍ راح الشابُّ يتلَفّتُ يَمنةً ويَسرة. وشعر بمُتعةٍ وهو يرى كلَّ مَن حوله مبتهجًا. ولكنّ هذه النشوةَ سُرعان ما تبخّرت عندما راح يتفقد جثث من سقطوا من رفاقه.

الفصل الخامس

نهض الشابُ متثاقلاً، وبدأ يعود تدريجيًا إلى استدراك حالته. وراح يتفحّص ذاته وكأنّه يتعرّف على نفسه لأوّل مرّة. ثمّ التقط قبّعته ووضعها على رأسه، وأصلح من شأنِ لباسه. قال يخاطب نفسه: «لقد انتهى كلُّ شيء أخيرًا، ومرّت التجربةُ الكبرى بسلام، وتلاشت الصعوبات الهائلة للحرب». وشعر بنشوة الرضى عن نفسه. فقد شعر أنّ الرجل الذي قاتل بهذه الطريقة لا بد أن يكون عظيمًا، وأنّه أبلى بلاءً حسنًا، بل إنّه شعر أنه كان صِنوًا لمن يُعتبرون أكثر خبرة منه. وابتسم ابتسامةَ الرضى عن نفسه.

وراح يلاطف رفاقه بودٍّ قائلاً: «يا له من يوم حارٍّ. أليس كذلك؟» وأجابه أحد زملائه: «نعم أنا لم أشهد يومًا بمثل هذه الحرارة!» وتابع يقول: «آمُلُ ألا نشهد مزيدًا من القتال لفترة أسبوع من الآن!»

وشعر الفتى أن رفاقه باتوا أقربَ إلى قلبه، وراح يساعد أحدهم في تضميد جراحه.

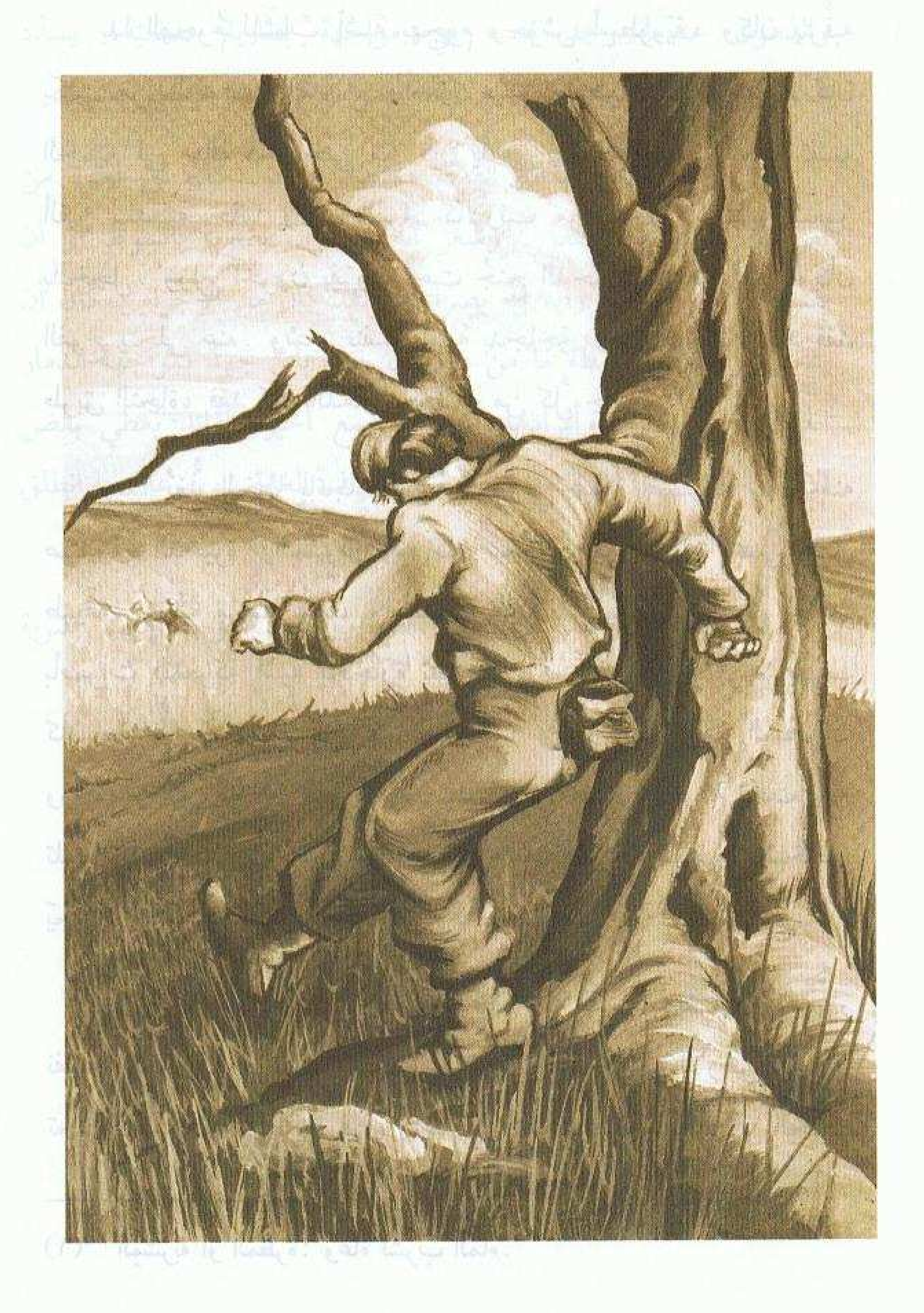
ولكن فجأة ارتفعت صيحات الدهشة في صفوف الفوج الجديد: ها هم يعودون! ها هم يعودون ثانية.

وعادت القذائف التي توقَّفت فترة من الوقت تنهالُ على مواقع الفوج وتنفجر وَسْطَ الأشجار. وبدا عدوُّهم لهم عدوًّا شرسًا لا يعرف الهَوادة. وراحوا يتذمَّرون ويشتكي أحدهم إلى الآخر: «لماذا لا يرسلون إلينا تعزيزات؟» كانوا يشعرون بالخوف ويراقبون العدوَّ المسعور الذي يقترب منهم.

قال أحدهم: «لماذا لا يستطيع أحدهم أن يرسل إلينا تعزيزات؟ نحن لا نستطيع أن نقاومَ هجومًا آخر. أنا لم آتِ إلى هنا لأقاوم جيشًا بأكمله».

راح الفتى يتأمَّل ما حوله ويفكِّر: هذا أمر مستحيل أن يحدث. وتوقَّع أن يتوقف العدوّ فجأة، ويقدِّم الاعتذار عمّا فعل. لا بدّ أن في الأمر خطأً ما.

ولكنَّ القصفَ استمرَّ على الفوج من كلِّ جانب، وتصاعدَتْ سحب الدُّخان. ارتعدت فرائصُ الفتى خوفًا وبدا مثلَ حِصانٍ مذعور. وعادت تتردَّد في مسامعه شكاوى رفاقه من عدم إرسال القيادة تعزيزاتٍ إليهم. كما عاوده الشعورُ بأنّ خصمهم لا قِبلَ لَهم به وأدهشه إصرارُهم على القتال. وقال لنفسه: لا بدَّ أنَّهم آلات من حديد، وأنَّهم سيتابعون القتالَ حتّى غروب الشمس.



بدا الهجومُ للشابّ أشبهَ بهجوم وحوش أسطوريّة، وكان يترقّبه بكثير من الخوف والذعر. وأغلق عينَيهِ وانتظر أن يفترسوه. كان الجميع في حالة ذُعر حتّى من كان يدّعي الشجاعةَ منهم. وهو نفسه ألقى ببندقيّته جانبًا ولاذ بالفرار كالأرنب من دون أن ينتابه شعورٌ بالخجل. وراح آخَرون يفِرّون تحت جُنح الدخان. وشعر الفتى وكأنَّ الفوج يتخلّى عنه. وشعر بنفسه أشبهَ بدجاجةٍ ضلَّت طريقها. لقد فقد طريق النجاة، فقد كان الدمارُ يحيط به من كلِّ جانب.

وبدأ يُغذُّ الخطا باتّجاه المؤَخّرة. وفي غمرة اضطرابه سقط منه صندوقُ الذخيرة والمِشْربة(١). كان يجري مثل رجل أعمى ضلَّ طريقَه، وتعثَّر مرّاتٍ عدة، وارتطمَتْ كتفُهُ بقوّة بغصن شجرة. وشعر بأصوات المعركة أشبهَ بحجارةٍ تتساقط فوق رأسه. وفيما هو يهرب كان يختلطُ بالآخرين عن يمينه ويساره. وكان يسمع وقعَ الخطوات وراءه. وخُيِّلَ إليه أنَّ الفوجَ برُمّته قد فرَّ من موقع المعركة تحت وقع تلك الضربات الشديدة. وشعر بشيء من الراحة لوجود أشخاص يَجْرون خلفه؛ إذاً قد يكونون دريئةً له.

ووجد نفسه فجأة في حقل تتساقط عليه القذائف بغزارة، وتصوَّرَ نفسه وكأنه وقع في فكِّ وحش مفترس. وانبطح على الأرض محاولاً تجنّب القذائف المتطايرة فوق رأسه. وانتابته رعشةٌ شديدة من الخوف

(١) المِشربة أو المطرة: وعاء لشرب الماء.

والذهول عندما وجد نفسه في مواجهة بطّارية مدفعيّة، يسدّد المدفعيّون فيها بدقة ومهارة. وكانت أصواتُ قذائفهم تزمجر كالرعد.

وفيما بعد التقى بقائد الفِرقة ممتطيًا جوادَه. كان في حَيرة من أمره لا يدري ماذا يفعل. وشعر أنَّه يريد أن يضربَهُ بالسوط أو أن يقترب منه ويقولَ له رأيه فيه بصراحة. لقد كان من الإجرام بمكان أن يتخفّى وحيدًا في نقطة ما منْ دون أن يقوم بأيِّ جهد لمواجهة الدمار الذي يحلّ بالفرقة وأفرادها. ولكنّه سمع أخيرًا القائد يُعطي بعضَ الأوامر ومن بينها أن يبتعدَ اللواءُ إلى أطراف الغابة. وسرعان ما انطلق خيّالٌ بجواده ليُبْلِغَ الأمرَ إلى قائد يدعى تيلور.

قال القائد: «لقد أوقفناهُمُ الآن. ولسوف نوجّه إليهم ضربة قاصمة!»

الفصل السادس

انكفأ الفتى على نفسه كمنْ شُوهد متلبِّسًا بجريمة. يا إلَهي لقد ربحوا المعركة في النهاية! لقد صمد صفُّ البُلهاء وصاروا هم المنتصرين. إنّه يكاد يسمع هُتافاتِهم. ورفع نفسه على رؤوس قدميه وراح ينظُرُ إلى جهة القتال.

لقد أحسن صنعًا بإنقاذِ نفسِه. لقد اختار الوقت المناسب لينجو بنفسه. وراح يفكِّر في رفاقه. لقد استطاع الخطُّ الأزرق الهشُّ أن يصمُد أمام الضرباتِ ويفوز.

وشعر بشيء من المرارة بسببَ ذلك. وراح يفكِّر أنَّ الجهالة العمياء وحماقة أولئك الأفراد قد غرَّرتا به. وانتابه غضبٌ شديد على رفاقه الذين لم يعرفوا كيف يحافظون على مواقعهم. لقد أثبتوا حماقتهم. أمّا هو فقد كان لديه من حسن البصيرةِ والتنبُّؤ ما جعله يهرب في الوقت المناسب.

اهتزت الأشجارُ برفق، وغابت الشمسُ وراء الأفق عاكسةً بقايا أشعَّتها على الغابة، وساد صمت جعل صوتَ حفيفِ الأشجار أشبه بالغناء.

وسط هذا السكون دوَّت فجأة أصواتُ قعقعة هائلة. شيء كالرعد كان يُسمَعُ عن بُعد. توقَّف الشابُّ عن السير وقد انتابه الرعب من تلك الأصوات، الّتي بدت له وكأنّها أصوات عوالم تتشقَّق. لقد كانت أصواتَ انفجار بارود وتراشقًا بالمدفعيّة. وشطَّ ذهنهُ في كل اتّجاه. وتصوّر أن الجيشين عادا إلى الالتحام. وأصاخ السمع بعض الوقت، ثم بدأ يعود باتّجاه المعركة. وبدا له أنّ من دواعي السخرية حقًّا أن يتّجه إلى الوجهة التي جاهد كثيرًا كي يتجنّبها.

وفيما هو يعدو تنبّه إلى أنَّ الغابة قد أوقفت موسيقاها، وأنَّ الأشجار تقف بلا حَراك. كان كلُّ شيء يبدو وكأنّه يصغي لصوت ذلك الرعد الذي يُصمُّ الآذان. وراح يحُثُّ الخطى. كان يرغب في الوصول إلى حافة الغابة من حيث يستطيع أن يتطلَّعَ. وكانت الأشجارُ تعترض طريقه وهي تمد فروعها وأغصانها وتُعيق مروره، فشعَر وكأنَّ الطبيعةَ تُعانده.

ولكنّه أصرّ بعنادٍ على اتخاذ طرق جانبيّة، ووصل إلى حيثُ بات بوُسعه أن يرى جُدرانًا عالية رَماديّة اللون من البُخارِ حيث تقع خطوط المعركة. هزت أصوات المدافع كيانه وأصمّت أصوات انفجار البارود أذنيه. وقف متحفِّظًا لبرهة، وراح يُحَدِّقُ ببلاهة إلى جهةِ ميدان القتال. وتقدَّم ثانية إلى الأمام. بدت له المعركة أشبه بطاحونة للرعب والخطر الدّاهم. ومع هذا فقدْ سحرته بتعقيداتها وقواها. لا بدّ أن يقترب أكثر حتى يرى كيف تُلفَظُ الجُثَث.

اقترب من سور وتسلَّقه. في الطرف الآخر كانت الأرض ملأى بالملابس والبنادق المبعثرة. وثمّة جثّة لجنديٍّ ملقاة على الأرض وقد أخفى صاحبها وجههُ بيديه. وبالقرب منه ثمّة مجموعة أخرى من أربع جُثَثٍ أو خمس، والشمس الحارقة تلقي بأشعّتها فوقها. وشعر نفسه في هذا المكان وكأنّه متلصص ينتهك حرمة مكان ما. فهذا الجزءُ المنسيُّ من أرض المعركة ملكٌ لهؤلاء الموتى.

أخيرًا وصل إلى طريق يستطيع أن يرى منه عن بُعدٍ أجسادَ المقاتلين القائمة التي يَلفُّها الدُّخان. وفي أحد الخطوط كان ثمّة مجموعة ملطّخة بالدماء تتّجهُ إلى المؤخَّرة. وكان الرجال الجرحى يئنّون وينتحبون. أمّا في موقع آخر فكانت أصوات المدافع والبارود تختلط بأصوات الهُتافات.

ورأى ضابطًا يحمله اثنان من الجنود. وكان يصيح غاضبًا: «لا تهرول هكذا أيها الأحمق جونسون! هل تحسب رجلي من حديد؟ إذا كنت لا تستطيع أن تحملني، فضعني على الأرض ودعْ غيرك يقوم بهذه المُهمّة».

صاحَبَ الفتى مجموعة منَ الجُنْدِ كانت تمشي متفرّقة وقد بدت عليها ظاهرةً أمارات الإنهاك والإعياء. هذه المسيرة الحزينة كثيرًا ما يعترضها بعض المراسلين، أو بعض البطاريّات المنطلقة بسرعة فيصيح الضباط فيهم كي يفسحوا لها الطريق.

وكان ثمّة رجل يرتدي أسمالاً بالية علاها الغُبار والدماء من قِمّة رأسه حتى قدميه، يحاول أن يقترب بهدوء من الفتى. وبعد قليل ازداد قربًا محاولاً أن يتحدَّث إليه. كان صوته رقيقًا وعيناه تتوسَّلان. ولاحظ الفتى أن الجنديَّ مصابٌ بجرحين، أحدهما في رأسه رُبِطَ بلفافة ينضَحُ منها الدمُ، وآخَرُ في ذراعه.

وبعد أن مشيا معًا بعض الوقت تجرّأ الرجل ذو الملابس البالية على الكلام وقال: «كانت معركة رائعة، أليس كذلك؟» نظر الشابُّ مليًا إلى ذلك الجريح المسكين ذي العينين الوديعتين: «ماذا قُلْتَ؟»

«إنّها معركة رائعة.. أليس كذلك؟»

وأجاب الشابُّ باختصار وهو يسرع الخطى: «نعم».

لحق به الرجل؛ فقد كان في حاجةٍ إلى إنسان يتحدَّث إليه بعض الوقت، وشعَرَ أن الفتى يمكن أن يكون رفيقًا طيبًا. وراح يشجّعه على الكلام. وظلَّ يثرثر ويثرثر والشابُّ لا ينبِسُ ببنت شفة. وفجأة سأله الرجل سؤالاً أثار الذُّعر في نفسه. فقد قال له: «أين أصبت يا فتى؟»

لم يعرف الفتى بماذا يجيبه. استدار فجأة مُغيّرًا طريقَهُ، تاركًا الرجلَ المسكين في حَيرة من أمره.

الفصل السابع

تراجع الشابُ في مشيته حتى أصبح الجنديُ الرَّثَّةُ ثيابُه بعيدًا عن ناظريه. ثمَّ تابع مسيرتَهُ مع الآخرينَ. وووجد نفسَهُ وَسْطَ مجموعةٍ من الجَرحى. كانَ السّوادُ الأعظم منهُم ينزِفُ دمًا. وشعَرَ بشيء من الذنب إزاءَهم.

كان في وقت من الأوقات ينظرُ إلى الجنود الجرحى نظرةَ حسد. وكان يعتبر أنّهم سُعَداء رغم أجسادِهِمُ الممزّقة. وكان يتمنّى هو أيضًا أن يكون جريحًا، وأن يحظى بشارة الشجاعة الحمراء.

وضعَ يدًا مرتعشة على ذراع رجل جريح، وعندما استدار إليه ذلك الجريح بملامحه الجامدة صاح الشابُ: «جيم كولين!»

ابتسم الجنديُ الطويل له وقال: «مرحبًا يا هنري».

راح الشابّ يُحَدِّق إلى الجنديِّ الطويل مندهشًا ومتفحّصًا: «آه يا جيم.. آه يا جيم!»

قال الجنديُ الطويل: «أنت تعلم.. لقد كنتَ هناك... يا إلٰهي يا له من سيرك! لقد أُصبتُ هناك. نعم أُصِبتُ». وراح يكرِّر ذلك بطريقة مُحيِّرة كما لو أنّه لم يدرِ كيف حدَث ذلك.

وضَعَ الفتى ذراعيه حوله محاولاً أن يساعده، ولكنَّ الجنديَّ ظلَّ يتابع سيره قدمًا كمن هو مدفوع إلى ذلك. ومنذ وصول هذا الشابِّ كحارس لرفيقه لم يعد باقي الجرحى يلقون إليه بالاً. كانوا يُشْغِلون أنفسَهم بجرجرة مآسيهم إلى المؤخَّرة.

وفجأة وفيما كان الصديقان يسيران جنبًا إلى جنب بدا أن الجنديَّ الطويل قد أفزَعه شيءٌ ما. وبدا وجهه مثلَ عجينةٍ رَماديّة اللون. تمسَّك بذراع الفتى وراح ينظر إلى مَن حوله بارتياب كمن يخشى أن يَسمَعَه أحدٌ. ثم أخذ يتكلَّم بهمس متقطِّع:

«سأحكي لك ما أنا خائف منه يا هنري.. سأحكي لك ما أخشاه. أنا أخاف.. أن أقع أرضًا.. وأنت تعرف أنَّ عرباتِ المدفعيّة لن تُسعِفني.. هذا ما أخشاه».

صاح الشابُ به بطريقة هيستيريّة: «أنا سأعتني بك يا جيم. أنا سأعتني بك، وأقسِمُ على ذلك».

أجابه الجنديُّ الطويل بتوسُّل: «هل أنت متأكِّد يا هنري؟» قال الشابُ بشيء من الاحتجاج: «نعم.. نعم. قلت لك إنّني سأعتني بك».

استمرَّ الجنديُّ يتوسَّلُ بانكسار. كان يشعُرُ أنّهُ كالطفل وهو يُمسِكُ بذراع الفتى. وكانت عيناه تَنِمّان عن رُعب شديد. قال لهنري:

«لقد كنتُ دومًا صديقًا لك يا هنري. . كنتُ رفيقًا طيِّبًا لك. أليس كذلك؟ أَبعِدْني فقط عن هذا الطريق يا هنري».

شعَرَ الفتى بالأسى الشديد من أجل رفيقه وأجهش بالبكاء. ولم يستطع أن يُعَبِّر عن وفائه له إلاّ من خلال تعبيرات وجهه.

بدا الجنديُّ الطويل فجأة وكأنه نسِي مخاوفه واستعاد رَباطة جأشه. وأخذ يمشي منتصبًا إلى الأمام. طلب إليه الفتى أن يستند إليه، ولكنه رفض بشدّة. . كانت عيناه تنظُران إلى المجهول وكأنّهُ يتحرَّك نحو هدف غامض. ولم يكن بوُسْعِ الفتى سوى أن يتبعه.

وفيما هما يسيران سمع الفتى صوتًا أتاه من خلفه يقول: «من الأفضل إبعادهُ عن الطريق. . فهناك بطّاريّة قادمة خلال دقائق وقد تدهمه. . من الأفضل أن تُبْعِده عن الطريق». كان ذلك صوت الجندي رثّ الثياب.

حثَّ الفتى خُطاه وأمسك بالجنديِّ الطويل من ذراعه قائلاً: «جيم! جيم تعالَى معي». كان الجنديُّ الطويل مُنهكًا للغاية وفي حاجةٍ إلى من يساعده. نظَرَ إلى الشابِّ مُحَدِّقًا إليهِ لبرهة ثم قال بغمغمة: «إلى الحقول؟ آه!»

التفت الشابُّ فرأى أفراد بطّاريّة المدفعيّة ينطلقون مسرعين بآليّاتهم. أدار رأسه بسرعة نحو رفيقه فرآه يجري بتعثُّرٍ وتثاقل نحو كتلة من الشجيرات. وبدا وكأنَّ قلبه قد انخلع من جسده وأطلق صيحةَ

ألم. وانطلق الفتى ومعه الجنديُّ الآخر يطاردانه. وصاحا به: «جيم. . جيم ماذا تفعل؟ ما الذي يجعلك تتصرف هكذا؟ إنك تضرُّ بنفسك».

احتجَّ الجنديُّ الطويل عليهما بضعف وهو ما زال يثبت عينيه على هدف غامض. قال لهما: «لا. . لا. . لا تلمُساني، اتركاني هكذا».

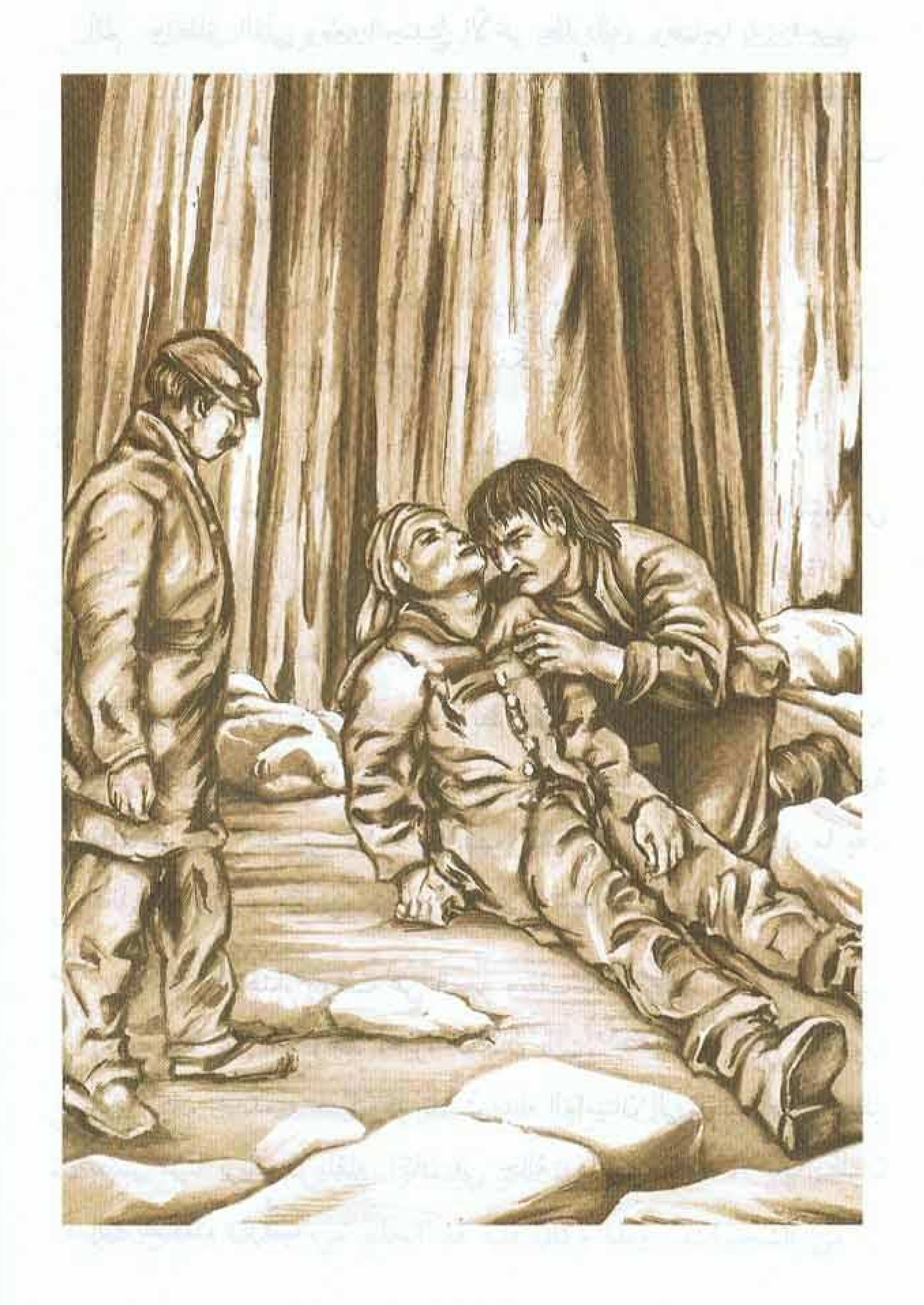
ذَهِلَ الفتى لحال الجنديّ الطويل وراح يسأله بصوت متهدِّج: «إلى أين أنت ذاهبٌ يا جيم؟ بمَ تفكِّر؟ قل لي إلى أين أنت ذاهب يا جيم؟ ألا تريد».

شعر الجنديُّ أنّه يواجه ضغوطًا شديدة. وكانت نظراتُه تنِمُّ عن توسُّلٍ شديد. قال لهما: «دعوني وحدي. . دعوني دقيقة واحدة».

قال الفتى: «لماذا يا جيم؟ ما بك؟»

استدار الجنديُّ وجنح فجأة بطريقة خطرة وتابع سيره. ولحق به الفتى والجنديُّ الآخَرُ وهما يشعُران أنَّهما غير قادرين على مواجهة ذلك الرجل المصاب إذا ما جابههما ثانية. لم يكونا يفهمان ما به. كانا مذعورينِ وخائفَين. وتراجعا قليلاً خشية أن يستخدم سلاحه.

أخيرًا شاهداه يتوقف عن السير ويقف بلا حَراك. وشعرا أن تعبير وجهه ينِمُّ عن أنَّهُ وجد أخيرًا المكان الذي جاهد من أجل الوصول إليه. كان جسده منتصبًا وقد تدلَّتْ يداه الداميتان إلى جنبه. كان ينتظر بصبر شيئًا يريد أن يلقاه. كان في حالة وداع. ووقف الاثنان ينظران إليه بصمت وترقُّب.



وران صمتٌ عميق.

وأخيرًا راح صدر الجنديّ المُصاب ينتفخ بحركة متوتِّرة. ثمّ بدأت تزداد عنفًا كما لو أنَّ ثمَّة حيوانًا في صدره يركُلُ ويضربُ بقوّة كي يحرِّر نفسه. هذا الاختناق التدريجيُّ الواضح جعل الشابَّ يتلوّى ألمًا. وعندما نظر في عيني الجنديِّ الآخَر رأى فيهما ما جعله ينهار على الأرض. وحاول أن يرفعَ صوته مناديًا:

«جيم.. جيم.. جيم».

فتح الجنديُّ الطويل عينيه وقال: «دعوني.. لا أحد يَلمُسني!» فجأة أخذ جسده يتصَلَّبُ ويستطيل، ثم أخذته قُشَعْريرةٌ طويلة. وراح يحدِّق إلى الفراغ. كانت ترتسم على وجهه ملامح أَنَفَةٍ شامخة.

ثمّ بدأ يترنّحُ مثلَ شجرةٍ آيلةٍ إلى السُّقوط. وما لبِثَ أن سقط على الأرض. صاح الجنديُّ الآخَر: «يا إلَهي!» أمّا الفتى فقد امتقع وجهه وارتسمت عليه أمارات الألم الشديد حزنًا على صديقه.

أسْلَم الجنديُّ الطويل الروح.

أراد الشابُّ أن يصرُخ ألمًا تعبيرًا عن حُزنه ولكنَّ لسانه اختنق داخل فمه. ألقى بنفسه على الأرض وراح يحتضنه.

قال الجنديُّ الآخَرُ بعد أن ترك الشابَّ يُنَفِّسُ عن أحزانه:

ـ «حسَنًا.. لا فائدةَ من بقائنا هنا».

وبعد أن نظرا إلى الجُثّة المسجّاةِ أمامهما طويلاً.. استدارا معًا وتابعا طريقَهُما.

الفصل الثامن

بات يعي أن الهديرَ الجهنّميَّ للمعركة يزداد صخبًا. وكانت السُحُبُ الداكنة البنّيةُ اللون تمدُّ أجنحتها فوق الهواء الذي يتنفّسونه. وكانت الغابات ملأى بالجنود فيما بدت الحقول كالبقع الملطّخة.

وتخيَّل الفتى أن الطريق الآن بات كتلة صاخبة من العربات والفِرَقِ والرجال تتزاحم كالخراف. وكان يتابع هذه المشاهد بشغف. وها قد ظهر أمامه طابورٌ طويل من المشاة الصامتين يتَّجهون قُدُمًا. وكان مشهدُهم وهم يلتفّون حول بعض العقبات التي تعترض طريقهم أشبه بحركة ثعبان ضخم. وكان الرجال يشقّون طريقهم عبر الجموع بالقوّة. كانوا يتوجَّهون إلى مجابهة اندفاع العدوّ الشديد. وكانوا يشعُرون بالفخر بتحرُّكهم فيما بقيّة الجيش لا تزال تلحَقُ بهم وتملأُ ذلك الطريق.

وفيما كان الشابُّ يتابعهم بناظريه عاد إليه الشعور بالاكتئاب الشديد. فقد شعر أن الموكبَ لا يضُمُّ إلا الأفراد المُختارين، وأنَّ الفارق بينهم وبينه كبير، وأنَّهُ لا يمكن أن يكون مثلهم. فهم يمشون

مختالين بأسلحتهم وأعلامهم. وحزَّ في نفسه هذا الشعور بالفرق الكبير. وراح يبحث في ذهنه عن سببٍ مقنع لذلك.

وتساءل ماذا يأكل أولئك الرجالُ حتى يتمكنوا من شقّ الطريق بقوةّ نحو الموت. وفيما هو يراقبهم تمنّى لو أنّه يستطيع أن يحلَّ محلَّ واحدٍ منهم. كان يتمنّى أن يحظى بقوّة خارقة وأن يزُجَّ بنفسه في القتال. جميعُ هذه الصور السريعة توالت على ذهنه، وجعلته يشعُرُ بروح معنويّة أفضل. بل إنّهُ شعر برعشة حب القتال. وكانت تتردّد في أذنيه أصداءُ أجراس النصر. فأصوات أقدام الجنود وقرقعة أسلحتهم جعلته يُحلّق فوق أجنحة الحرب الحمراء. بل أحس أكثرَ من ذلك أنه في طريقه إلى الجبهة.

ولكنْ سرعان ما عاودته الذرائعُ السلبيّة والمخاوف. إنّه لا يملك بندقيّةً، وهو لا يستطيع القتال من دون سلاح. . لا يستطيع أن يقاتل بيديه. وبالإضافة إلى ذلك فإنه يكاد يكون من المستحيل أن يعثُرَ على فوجه. وراح يتخيّل رفاقَه في السلاح وهم يتفحّصونه فيما هو يتذرَّعُ ببعض الأكاذيب. ومع هذا فقد ظلَّ يستمرىءُ تلك الذرائع ويقول في نفسه إنّ تحقيقَ تلك الأهداف الجسيمة هو أكبر بكثير مما يستطيع القيام به.

والأكثر من ذلك أنَّ بعض الأوجاع بدأت تظهر، وبها لا يستطيع أن يقاوم التحليقَ عاليًا بأجنحة الحرب، وهذا ما أوحى له أنه

يكاد يكون من المستحيل أن يرى نفسه تحت أضواء البطولة.

كان يشعُرُ بالألم في كلِّ عظْمةٍ من عظام جسمه، وأنّها تكاد تنكسر لدى أيّةِ حركة يقوم بها. كانت قدماه مُقرَّحتين، وكان يشعُرُ بحاجة ماسّة إلى الطعام وفيما كانت تتقاذفُه المشاعرُ لم يعد يشعُرُ بأوجاعه. إنّها تُحيط به من كلِّ جانب. وكان يزدادُ كُرهًا لنفسه، وفي ذروةِ اليأس اعترف بأنّه ليس كالآخرين. إنّهُ يعترفُ الآن أنّه يستحيل عليه أن يكون بطلاً. إنّه وَغْدٌ جبان.

شيء ما في ذاته جعله يرغب في البقاء إلى جوار المعركة. كان لديه رغبةٌ شديدة في أن يتابعَ الأخبارَ ويتلقّطها، وأن يعرف منِ الفائز. وقال في نفسه إنّهُ بالرغم من معاناته الشديدة إلاّ أنّه لم يفقد الرغبة في الانتصار.

كانت جميعُ هذه الأفكار تجول بسرعة في رأسه. كان يحاول أن يُبعدَها وينأى بنفسه عنها. كان يشعُرُ أنّه شرّير وأنّهُ أكثر الناس أنانيةً في الوجود. وتخيّل أنَّ الجنود الذينَ يُصرَعون في ساحة الوغى إنّما يُصرَعون بسببه. وتمنّى ثانية لو أنّه كان في عداد الموتى. وشعر باحتقار شديد لأولئك الذين يرتكبون المجازر ويقضون على حياة الناس.

وكان من بين الأفكار التي راودته أنّ هزيمةَ الجيش ستكون وسيلةً للتخلُّص والهروب من نتائج فشله. ولكن من العبث التفكير بمثل هذا

الاحتمال. فقد كان لديه قناعةٌ راسخة بأنّ النجاحَ سيكون حليفَ الجيش الأزرق الجبّار، الذي سيحقّق النصر بسهولة. هذه القناعةُ قادته إلى فكرة أخرى هي ضرورةُ البحث عن قصة مقنعة يستطيع أن يعودَ بها إلى فوجه عندما يعود إليه ويحول دون السخرية المتوقّعة منه.

ولما كان يخشى بشدّة من تلك الملاحظات الساخرة كان من المستحيل عليه اختراعُ قصّة تُقنِعُ الآخرين. وفكَّر في خطط وروايات عدةٍ ولكنّه نبذها واحدة بعد الأخرى لسخافتها. فقد كانت جميعُها ملأى بنقاط الضعف وعدم الإقناع.

وتخيَّل الفوجَ جميعَه يقول: «أين هنري فليمنغ؟ لقد هرب أليس كذلك؟» واسترجعَ في ذهنه الكثيرين ممن سيزعجونه ويسخرون منه. إنهم سيوجِّهون إليه أسئلةً خبيثة ويسخرون من تردُّده. ولا شكَّ أنهم سيراقبونه جيّدًا في الاشتباك القادم ليروا متى سيفِرُّ من المجابهة.

الفصل التاسع

رأى موجاتٍ سوداء من الرجال تخرج من بين الغابات وتنحدرُ نحو الحقول بسرعة كالجواميس المذعورة. أُصيبَ الشابُّ بالخوف. كان يُحدِّق إلى ما يرى بألم ودَهشة. نَسِيَ أنَّ له صلة بالمعركة وفقد الاهتمامَ بنفسه.

كانت المعركةُ قد انتهت بالهزيمة. وكان الجنود بوجوههم الصارمة يمشون بخطًى سريعة غير مَرْئيّة.

كان ثمّة شيء في داخله يدفعه إلى الصُّراخِ: لماذا؟ لماذا؟ ماذا حدث؟

وسُرعانَ ما وجد نفسه في وَسَطِهِم. كانوا يتواثبونَ ويَعْدون من حوله، ووجوههم الكالحة تلوح في الظلمة. وبدا معظمهم من ذوي الجُثَثِ الضخمة. وكان الفتى يتلفّت من واحد إلى آخرَ وهو ينظر إليهم وهم يتواثبون. وضاعت أسئلتُهُ في الهواء، إذ لم يعبأ به أحد.

كانوا يتراكضون أسرعَ فأسرع في جميع الاتّجاهات. وأصواتُ المدفعية تُدَوّي في المقدّمة والمؤخّرة وعلى الجانبين مُحدِثةً تشوُّشًا

وحيرة في معرفة الاتّجاه. وضاعت العلامات الفارقة وسط هذه الحشود. وبدأ الشابُّ يتخيلُ أنَهُ بات في مركز صراع هائل وأنَّهُ لا يستطيع أن يجدَ مخرجًا منه. كانت هناك مئات الأسئلة تتردَّد على ألسنة الجنود الهاربين، ولكن لم يكن ثمّة من يجيب.

وكان بعض الضبّاط من سلاح المشاة المُبَعثَرِ يشتُمون ويلعَنون ببذاءة. وكانت أصواتهم القميئة تعلو على كلٍّ ما يحيط بالمكان من جلبة وضجيج.

وكانت المِدفعيّةُ تتجمّع.. وما كاد الشابُّ يغادر المكان وراءه حتى سمعَ أصواتَ المدافع تدوّي عاليًا، وتُزَمْجِرُ غاضبة وهي تقذِفُ بالحُمَمِ. وراح يُسرع في الظلام. فقد أرختِ العتمةُ سُدولها حتى بات من الصعب أن يتَلَمَّس المرءُ موضع قدمَيه.

صار الطريق الضيّق القصير خاليًا الآن. وكان هناك عشرات المَرْكَبات المقلوبة، وأجساد الخيول وأجزاء الآلات الحربيّة المبعثرة والمحطمة.

خُيِّلَ إليه أنَّ الجرحَ الذي أصيب به في رأسه لم يعد يؤلمه كثيرًا. ولكنّه كان خائفًا من التحرُّك بسرعة حتى لا يعاوده الألم الشديد. ربط رأسه بقوّة واتّخذ كلَّ الاحتياطات الممكنة كي لا يتعثر. كان شديد القلق، وكان يخشى أن يُعاودَه الألم من جرّاء أي تعثّر في الظلام.

كانت كلّ أفكاره، وهو يتابع الخُطى، تتركَّزُ على إصابته..

وكان يتخيل أن الدمَ يجري ببُطْءٍ تحت شعر رأسه. هذا السكون المؤقَّت لألم جرحه أقلقَه وجعله يشعُرُ بالخطر، حتى إنَّهُ تخيلَ أنَ ثمّة أصابع سوف تعبث في دماغه.

وراح يتساءل بينه وبين نفسه عمّا يجب أن يفعل: هل يضطجع وينام في مكان ما قريب، أم يُكره نفسهِ على متابعة السير حتى يصلَ إلى ملجأ ما؟ وفيما هو يُقَلِّب الأمرَ على وجوهه سمع صوتًا مرحًا أتاه من خلف ظهره يقول: «يبدو أنك تسير في الاتِّجاهِ الصحيح يا فتى؟»

أمسك صاحب الصوت المرح بذراع الفتى بقوّة وقال وهو يضحك ضحكةً عالية: «حسنًا. سأسلك الطريق الذي تسلكه. أعتقد أنّني أستطيع أن أساندك». وبدأ الرجلان يمشيان بخطوات واثقة متمهلة.

وفيما هما يتابعان السير كان الرجل يسأل الفتى أسئلة عدة ويساعده أحيانًا في الإجابة. وكانت مجمل الأسئلة تنصبُّ على ما إذا كانا سيعثران على فوجيهما في مكان ما، وعلى مصير هذين الفوجين بعد تلك المعركة الرهيبة.

الفصل العاشر

مشى الشابُّ ببُطءٍ باتِّجاه الحريق الذي أشار إليه صديقُهُ الذي فارقه. وكان يفكر وهو يمشي بالاستقبال الذي سيلقاه من رفاقه. وكان لديه قناعةٌ أنه سيكون موضعَ انتقاداتهم وسخريتهم. سيكون هدفًا سهلاً.

وفكَّرَ بخطّة غريبة وهي أن يختفي في أعماق الظلام، ولكنَّ هذه الفكرة سرعان ما تبخَّرت من رأسه نتيجة ما كان يعانيه من إرهاق وآلام في جسده. هذه الأوجاع أرغمته على أن يبحث عن مكان يجد فيه الطعام والراحة مهما كلَّف ذلك.

تابع طريقَه باتجاهِ النار بخطًى مترنِّحة. وعندما اقترب أكثر وجد كثيرًا من الرجال قد اضطجعوا على الأرض نائمين.

وفجأة صادفه جسد ضخم أسود وفي يده بندقيّة. صاح الرجل به: «توقفْ! توقفْ!». جفلَ برهةً ولكنه استطاع تمييز ذلك الصوت الغاضب. واقترب منه وصاح: «مرحبًا يا ويلسون. أأنت هنا؟»

خفض الرجل بندقيّته واقترب منه ببُطءٍ، وحدّق إلى وجه الشابّ: «أهذا أنت يا هنري؟»

ـ «نعم هذا أنا».

ـ «حسنًا، حسنًا أيُّها الفتى. أنا سعيدٌ لرؤيتك حقًّا. كنت أظنُّك في عداد الموتى». شعر الفتى أنّهُ يستطيع الآن أن يقف على قدميه بثبات. شعر بقوّة مفاجئة، وفكّر بضرورة الإسراع في عرض روايته كي يحميَ نفسه من الانتقادات اللاّذعة التي قد يوجِّهها ضده رفاقه المتشكّكون فيه. وشرع يقول للجنديّ الواقف أمامه: «نعم. . نعم، لقد واجهت أوقاتًا عصيبة. . وخضت قتالاً ضاريًا. . لقد فقدتُ الاتصال وتعرّضْتُ للإصابة في رأسي. لم أشهد في حياتي قتالاً كهذا، كان وقتاً عصيبًا. أنا لا أعرف كيف فقدتُ الصلة بالفوج».

اقترب منه صديقُه صائحًا: «ماذا؟ تعرَّضْتَ لإطلاق النار؟ لماذا لم تقل ذلك منذ البداية؟ مسكين أيها الفتى! ماذا عليَّ أن أفعل الآن؟ سأستدعي سيمبسون».

لاح في الظلام في تلك اللحظة شخصٌ آخر. وكان ذاك العريف. قال: «إلى مَن كنت تتحدَّث يا ويلسون؟» وكان سؤاله ينمُّ عن لهجة غاضبة. ولكنَّهُ التفت فوجد هنري. عندئذٍ قال مُرحِّبًا: «أهلاً يا هنري، أأنت هنا؟ كنت أظنك قد فارقت الحياة منذ أربع ساعات! حاولنا أن نبحث عنك. . نظُنُّ أنّنا فقدنا اثنين وأربعين رجلاً

في إحصاء أوّلي. ولكن إذا ظل الرجال يتوافدون بهذه الطريقة فسنستعيد جميع أفراد الوحدة عند الصباح. ولكن أين كنت أنت؟»

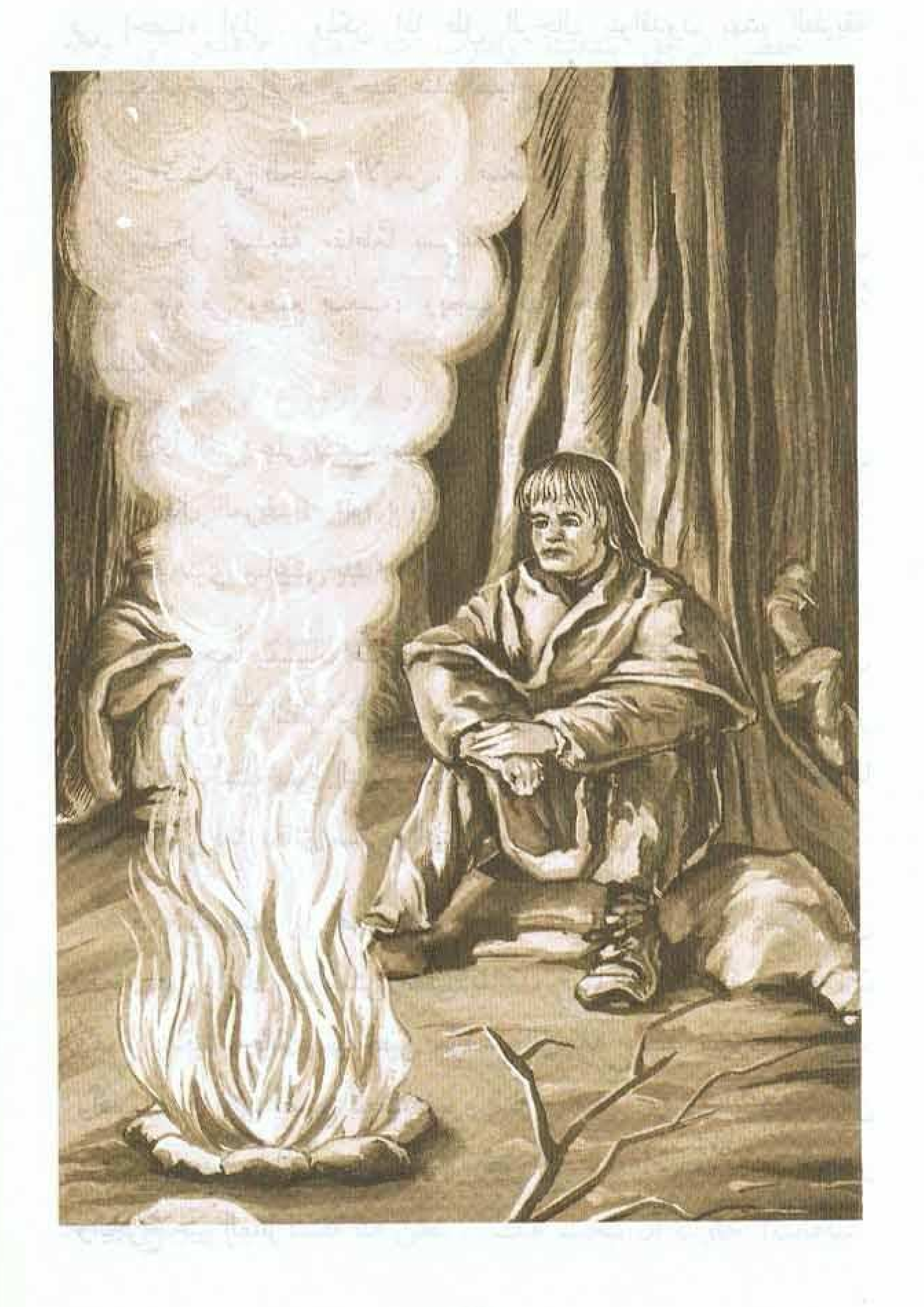
ـ «كنْتُ في الجانب الأيمن. . ضِعْتُ عنكم».

وتدخَّل صديقُهُ مقاطعًا بسرعة: «نعم. . وتعرَّض للإصابة في رأسه. إنّهُ في وضع صعب. ويجب أن نفحصه الآن توًّا. لا بد أنّهُ يؤلمك».

اتّكأ الفتى على كتف صديقه، وقال: «نعم إنَّه يؤلمني. . يُؤلمني جدًّا». قال العريف: «آه». وأمسكَ بذراع الفتى وراح يجُرُّه قائلاً: «تعالَ يا هنري سأعتني بك».

وفيما هما يمشيان صاح الجنديُّ خلفهما: «دعه يتدثَّرُ ببطّانيّتي يا سيمبسون». وانتظر برهة. «خذ مِشرَبتي، إنّها ملأى بالقهوة، انظر إلى رأسه تحت ضوء النار وتفقّدْ إصابتَه، ربّما تكون خطيرة، عندما تنتهي نوبتي بعد دقائق سآتي وأعتني به».

قاده العريف إلى ضوء النار وقال: «والآن يا هنري دعني ألقي نظرةً على رأسك». جلس الفتى طائعًا، فيما أخَذَ العريف، بعد أن وضع بندقيّته جانبًا، يتفحَّصُ موضعَ الإصابة وسط شعره الكثيف. وأدار رأسَه حتى يُصبح تحت ضوء النار مباشرة. وفيما هو يبحثُ عن موضع الجرح أطلق صفيرًا قويًّا حين لامست أصابعُهُ الدمَ المتناثر والجرحَ غيرَ الغائر.



قال: «ها هو! يبدو وكأنَّك أُصِبْتَ بهراوة. على أن الجرح قد توقَّف عن النزيف منذ وقت طويل. ما عليك الآن إلا أن تستريح ولا تتحرّك. سأذهب الآن وأرسلُ إليك ويلسون كي يعتني بك».

ابتعدَ العريف. أمّا الفتى فقد بقي جالسًا على الأرض بلا حَراك ينظُر إلى النار نظرة زائغة. وبعد قليل نهض وراح يستكشف الأمور من حوله. كان هناك عشرات الجنود النائمين وبجانبهم أسلحتهم، وقد تناثروا هنا وهناك.

جلس الفتى فوق كومة منعزلة إلى أن جاء صديقُه الجندي وكان يحمل مِشرَبتَينِ. قال الجنديُ للشابّ: «حسنًا يا صديقي هنري سوف نُعالجك في غضون دقائق». وطلب إلى صديقه أن يشرب القهوةَ من المِشْربة. ارتاح الشابُ لشرب القهوة وراح يرتشِفُها بمُتعة.

كان الجنديُ يراقب الفتى بعين الرضى. وقام بعد ذلك يَرْبطُ رأس الفتى بمنديل أخرجه من جَيبِه. نظر الفتى إلى صديقه نظرة امتنان.

قال الجنديّ: «إنَّك فتى طيّب يا هنري. كثير من الرجال يبقون طويلاً في المستشفى في مثل حالتك. فالإصابة في الرأس ليست بالشيء اليسير».

صمت الفتى ولم يُجِبْ.

تابع صديقه: «حسنًا هيا الآن. يجب أن أضعَك في السرير حتى تنعمَ بليلةٍ مريحة».

وقاده عبر صفوف النائمين، ثم توقّف والتقط بعض البطّانيّات، ثم قال له: «والآن اضطجعْ هنا ونمْ».

أطاع الفتى ما قاله له صديقه واضطجع على السرير وقد ارتسمت على وجهه علاماتُ الراحة.

وغطَّ الشابُّ في نوم عميق.

الفصل الحادي عشر

عندما استيقظ الشابُّ في اليوم التالي بدا له كما لو أنّه نام ألف عام، وشعر أنّه يفتح عينيه على عالم غير متوقَّع. وكانت سحُبُ الضباب الرَّماديّة تنقشع ببُطْءٍ أمام الموجات الأولى من أشعّة الشمس. وكان من الممكن رؤية الإشراق الوشيك في شرق السماء. وكان الندى الرطب يغطي وجهه ممّا جعله يتدثر بالبطّانيّاتِ التي فوقه.

كان صوت القتال يُسْمَع عن بعد، وكان هذا الصوت يدلُّ على إصرارٍ شديد على استمراريّة القتال.

وكانت حوله صفوفٌ وجموع من الرجال الذين رآهم بالأمس يُوشِكونَ أنْ يَستيقِظوا. نهض الفتى وراح يتأمّل جموع الرجال بلا حَراك من حوله. وظنَّ نفسه لأوّلِ وهلة وكأنّه في بيت للموتى. وخشيَ أنْ يتحرّكَ فتنهَضَ هذه الجُثَثُ من حوله.

فرك عينيه وتحسَّسَ الرباط الذي يلُفّ الجرحَ في رأسه. وجاء صديقه من بعيد وسأله بعد أن تأكَّدَ من استيقاظه: «حسنًا يا هنري، كيف تشعر نفسك هذا الصباح؟» تثاءب الشابّ. كان يشعُرُ برأسه

كالبِطّيخة، كما يشعرُ بألم في معدته. قال: «يا إلّهي أنا في حالة سيّئة للغاية».

قال صديقهُ متعجّبًا: «عجبًا! كنت آمُل أن تكون في أحسن حال هذا الصباح، دعني أرى الضماد، ربّما انزاح عن مكانِه». وراح يبحث عن الجرح بطريقة سيّئة جعلت الفتى يصرُخُ ألمًا، ويؤنّبه بعنف على طريقته الفظّة في تلمُّسِ الجرح. قال صديقه متأسّفًا: «حسنًا، حسنًا انهض وخذ بعض العلاج، وعندئذٍ ستتحسَّن».

صدرت الأوامرُ بأن يقف الفوج مستعدًّا تحت السلاح عند طرف الممرِّ بانتظار الأمر بالتحرُّك. وفجأة تذكَّر الشابُّ العلبةَ المغلّفة بغلاف أصفر، التي أعطاه إيّاها الجنديُّ ذو الصوت الأجشّ. شعَرَ بالدهشة والتفت إلى زميله قائلاً:

ـ «ويلسون!»

ـ «ماذا؟»

ولكنَّ الشابَّ تردَّد في تناول الموضوع ولم يشأ أن يزعج زميله بموضوع المغلَّف وما يحتويه.

كان الصديق في لحظة ضعف قد تحدَّث بأسى عن موته. وقدَّم ما يُشبه خُطبةً حزينة قبل أن يُشيّع وذلك في رسائل عدة إلى عدد من أقربائهِ. ولكنَّ الصديق لم يمت ووقعت هذه الرسائل في يد الشابّ. وهذا ما جعله يشعُرُ بالتفوّق على صديقه.

شعر الشابُّ فجأة أنه استعاد ثقته بنفسه تمامًا، وأنّه بات يقف على قدمَينِ راسختَين. إن أيَّ شيء عن أمر فراره لم يُكتَشفْ وبالتالي فهو لن يواجهَ قُضاتَه. ولن يسمَحَ ثانية بأنْ تراوده أيّة أفكار سلبيّة حول رجولته. وعندما استعرض ما حدث له بالأمس شعر وكأنّه حصل على شهادة بأنّه جريء ومتمرِّس.

إنّ شعورَه بالعذاب في الماضي بات وراء ظهره الآن. إنّهُ لم يعدْ يخشى شيئًا أو يخجلُ من شيء الآن. إنّه يحظى الآن باحترام رفاقه وبالتالي لم يعد ثمّة داعٍ كي يوبِّخَ نفسه على أشياءَ ربّما يعتقد أنّها خاطئة في أعين العالم أو المجتمع.

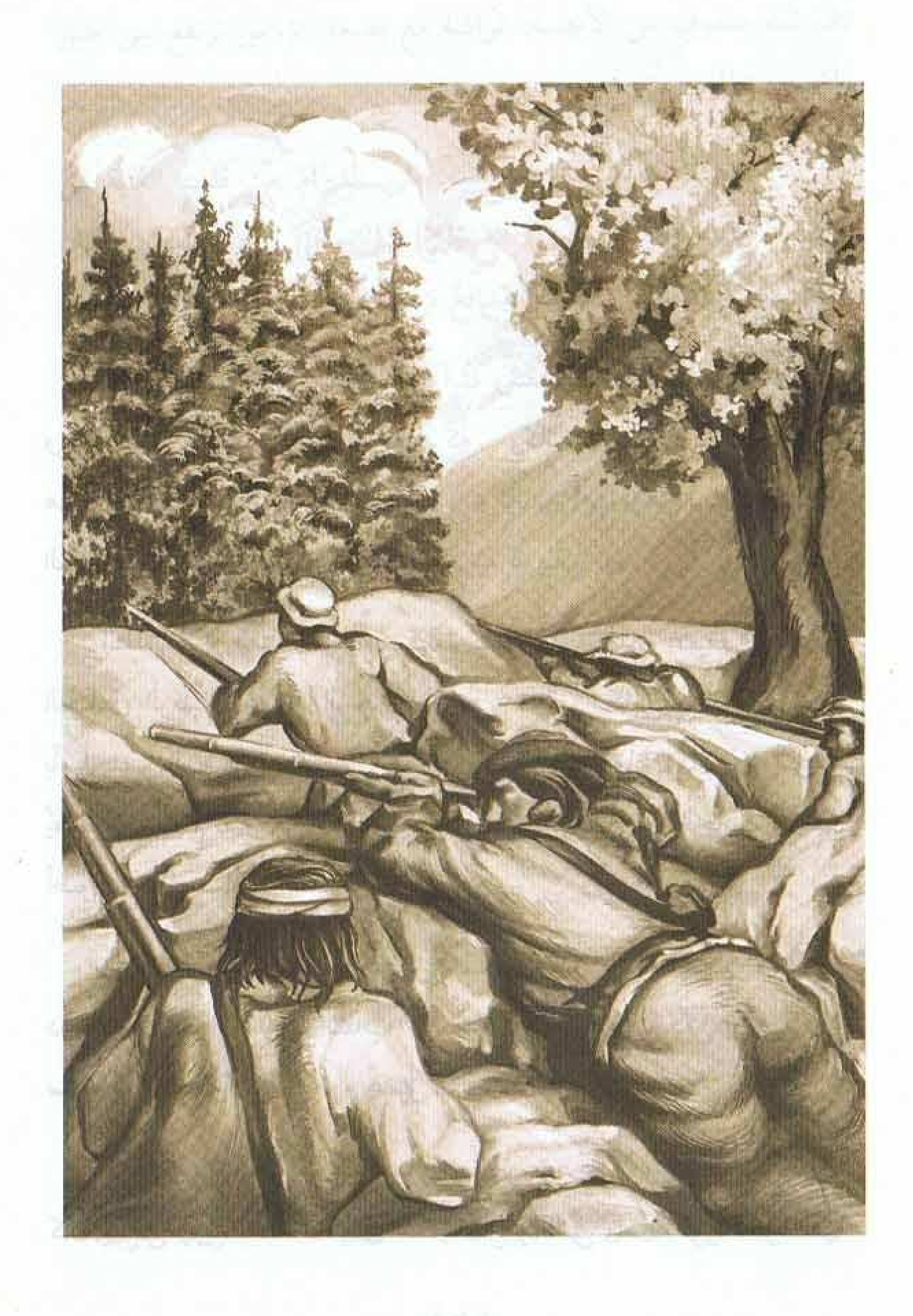
إنّه ينظُرُ إلى الحياة نظرةً متفائلة الآن. وبات يكره الشعراء الذين ينشدون البؤسَ والتشاؤم. ومن خلال الشعور بالسكينة التّي بات يحِسُّها الآن بات يرى العالم حديقةً لا تنبت فيها أشواك العذاب.

لقد عاد إلى إيمانه القديم بالنجاح الصاعد والراسخ لحياته. لم يعد يفكر كثيرًا في هذه المعارك التي تجري مباشرة أمام ناظريه. ولم يعد من الأمور الأساسيّة أو المهمّة أن يُخَطِّطَ برامجه وفقًا لها. لقد تعلَّم أنَّ الكثير من التزامات الحياة وفروضها يمكن تجنّبه بسهولة. وقد دلَّتْ دروسُ الماضي على أنَّ العقاب كثيرًا ما يكون متخلّفًا وقصير النظر. إنّهُ يستطيع أن يترك كثيرًا من الأمور للصدفة. إن ثقته بنفسه تزداد، وهو يشعُرُ أنَّ الثقة بنفسه أشبه بزهرة تتفتّحُ داخله. إنّهُ رجلٌ ذو

تجربة الان. إنهُ لم يكن وحشًا في يوم من الأيّام، ولكنّه بات يشعرُ أنَّ الوحوشَ ليست على تلك الدرجة من الشناعة التي كان يتخيَّلها.

وراح يتذكَّر كيف هرب بعضُ الرجال من المعركة. وشعر بالازدراء نحوهم وهو يرى كيف ارتسم الذعر على وجوههم. كانوا موتى ضعافًا. أمّا عن نفسه فهو عندما هرب، هرب بكرامة واختيار.

إنَّهُ عندما يستعرض صُوَرَ المعركة يشعر أنّهُ قانعٌ تمامًا بالعودة إلى المنزل ويخلِبُ ألبابَ رفاقه بالحديث عن قِصَصِ الحرب. إنّهُ يتخيّل نفسه وهو يروي تلك الأحداث بحرارة.



الفصل الثاني عشر

كانت تُسمعُ على الدوام أصواتُ رشقاتٍ من الأسلحة الخفيفة. وبعد ذلك دخلت المدفعيّة المعركة. وكانت أصواتها تُحدِث دويًّا هائلاً وسَطَ أجواءٍ أشبهَ بالضباب، وكانت أصداؤها مستمرّة. هذا الجزء من العالم كان يشهد أحداثًا حربيّة غريبة.

انطلق فوجُ الفتى لتخليص قيادة كانت قد توغّلت عميقًا في بعض الخنادق الرطبة. واتخذ الرجال مواقعهم خلف مكامنَ متعرِّجةٍ للرماية بأسلحتهم الخفيفة على طول شريط الغابة. وبالمُقابِلِ كان مناوشوهم يُطلقون عليهم النار من خلف الغابة. وكانت تُسمَع في الجانب الأيمن أصواتُ قتالٍ ضارٍ.

رابط الرجال خلف متراس صغير واتّخذوا أماكنهم منتظرين دورهم. اتّخذ صديق الشابّ وضعيّة الانبطاح وقد دفن وجهه في سلاحه. وبدا وكأنّه في نوم عميق.

كانتِ الأشجار الباسقة بمثابة سواتر تحجُب عنهم الرّؤية. وما كان يمكنُ رؤية خطِّ الخنادق المنخفض إلاّ من مسافة قريبة. وخلفها

كان ثمّة صفوف من الأجساد الراكنة مع بضعة رؤوس ترتفع بين حين وآخر مستطلعة.

كانت أصوات المناوشات آتية على الدوام من قلب الغابة في الجهة الأماميّة واليسرى، أمّا الضجيج الهائل في الجهة اليمنى فكان يزداد بدرجة مخيفة. وكانت المَدافِعُ تزأر وتُزمجِرُ دون هَوادةٍ. وبدا أنَّ حُمَمَ المدافع كانت تصبُّ من كلِّ مكان وتتشابك وتلتحم من مواقع عدة.

أراد الفتى أن يُطلق نكتة، وهي عبارة اقتبسها من إحدى الصُّحف تقول: «كلُّ شيء هادىء في الجبهة». ولكنّ صوتَه ضاع وَسْطَ أصوات الانفجارات الصاخبة.

هدأت أصوات المدافع أخيرًا، وراحت الشائعات تسري من جديد بين الرجال المرابطين في خنادقهم خلف أسلحتهم، وتنتقل في صفوفهم كالطيور، وكانت جميعها شائعات تبعَثُ جوًّا من التشاؤم. وهذا ما جعل وجوه بعضهم تمْتَقِعُ خوفًا وتوجُّسًا. فقد وصلت إلى مسامعهم روايات عن وجود تردّد وعدم ثقة لدى ذوي الرُّتبِ العالية. وتولّد لديهم شعور بوقوع كارثة. وزاد من شعورهم بالمأزق رشقات الأسلحة الخفيفة المتصاعدة كأصوات الجنّ المرعبة، إنَّهُ الأمر الذي أكّد مخاوفهم.

ساد شعورٌ باليأس وبدأتِ الهَمْهَمَة. وارتفعت أصواتٌ تقول:

«ماذا بوسعنا أن نفعلَ أكثر من ذلك؟» وكان من الواضح أنّهم في حيرة من أمرهم ممّا سمعوه من أنباء ولكنّهم لم يكونوا متيقّنين أنّهم هُزموا.

وقبل أن تنسحب سُحُبُ الضباب بفعل أشعّة الشمس بدأ الفوج ينسحب بحذر عبر الغابة على شكل طابور. وكانت خُطُواتُ العَدُوِّ المسرعة وغير المنتظمة تُرى في الحقول المجاورة والغيضات. كانوا يهتفون ويهلّلون. عندما شاهد الشابُّ ذلك نسي كلَّ أموره الشخصيّة ولم يعد يهمُّه إلا مصيره ومصيرُ رفاقه. وقال لرفيقه: «نحن نُقاد من قِبَلِ رؤساءِ ذَوي رؤوس فارغة». وعلَّق آخَر: «أكثر من مقاتل قال مثل هذا الكلام اليوم». وقال صديق الفتى بأسى وهو ما يزالُ في حالة خمول وذهول: «يبدو أنّنا دُحِرْنا».

لم يَجِدِ الفتى من الملائم أن ينحُوَ باللائمة على رفاقه أو رؤسائه. وحاول أن يتمالك أعصابَه، ولكنّه لم يستطع وسُرعان ما انفجر يصُبُّ اللعنات على قائد قواتهم. قال رفيقه: «ربّما لا يكون الذنبُ ذنبَه بالكامل، ولعلّه فعل كل ما بوُسعه، ولكنَّ حظَّنا العاثرَ هو ما جعلنا نندحر».

قال الشابُّ غاضبًا بصوت عالٍ: «حسنًا، ألم نقاتلْ ببسالة؟ ألم نفعل كلَّ ما بوُسع البشر أن يفعلوا؟»

وشعر فيما يبدو أنّه تسرَّعَ في كلامه. وتذكَّر ما كان يدور في أوساط المقاتلين في المعسكر ذلك الصباح على لسانِ قائد الوحدة،

والذي قال إنّهُ لم يرَ فوجًا جديدًا يقاتل بمثل هذه الطريقة التي قاتلوا بها في الأمسِ، وإنهم استبسلوا أكثر من أي فوج آخَر. وتساءل الفتى: «هل يمكن إذن أن يكون الخطأ هو خطأ الجيش لا خطأ الفوج؟»

ورد زميله: «كلاّ.. لقد قاتلنا كالأبالسة.. ولكنَّ حظَّنا كان عاثرًا». وقال الفتى: «إذا كان الأمر كذلك فإن الخطأ هو خطأ القائد الأعلى.. وأنا لا أجد جدوى من القتال والاستمرار في القتال والخَسارةِ باستمرار بسبب قائد غبيٍّ عجوز».

قال أحدهم ساخرًا وكان يقف إلى جانب الفتى ويستمع إليه: «ألا تعتقد أنّنا خسرنا المعركة كلَّها يا فليمنغ البارحة؟»

لم يَرْتَحِ الفتى لكلام ذلك الساخر، ولكنّهُ شعر بشيء من الخوف الداخليّ. وسارع إلى نفي هذا الاستنتاج. ولكن كان في قرارة نفسه يشعُرُ بالخطر، يبدو أنّ الرجل كان يتحدَّث عن معرفةٍ ومعلومات. وهذا ما أشعره بالإحباط.

كان ثمّة همس يجري بين أفراد الفوج. وكان الضبّاط يشعرُون بالغضب ونفاد الصبر، وشابَ تقديراتهم الكثيرُ من التشاؤم. أمّا الأفراد الذين تناثروا في الغابة فكانوا متزوين على أنفسهم يشعُرون بجرح في كرامتهم.

كانت النيران تُلاحقُهُم.. تهمد أحيانًا ثم تعود وتشتدُّ ثانية. وما

كان بوُسع أفراد الفوج أن يفعلوا شيئًا سوى أن يستمطروا اللعناتِ على أعدائهم.

صاح أحدهم: «ها نحن وَسْطَ الجحيم.. وحولنا الدِّماء والدَّمار!» وقال ضابط الوحدة التي ينتمي إليها الشابُّ فليمنغ بغضب: «كنت أنتظر القتالَ حين تكون الشمس في كبد السماء».

وراح يذرع المكان جيئة وذهابًا في مؤخَّرة وحدته التي تمترسَ أفرادُها خلف أي ساتر يجدونه حمايةً لأنفسهم. ظلت الوحدة مُتربِّعةً دون حَراك منتظرةً أن تنقشعَ الظلال الداكنة فوق الغابة أمامهم. صاح الشابّ: «يا إلَهي.. إنّنا ندور حول أنفسنا كالفئران.. لا أحد يعرف إلى أين نتّجه ولماذا، تُقْذَفُ النيران علينا ونُضرَبُ هنا ونُقْتَلُ هناك، ولا أحدَ يعرِفُ ماذا ينبغي أن نفعَل».

قال له صديقه معترضًا بشيء من الثقة: «سوف ينقلب الوضعُ إلى صالحنا في النهاية».

سخر منه الفتى وقال له: «كفاك هزءًا، أنت مثل قسّيس الأبرشيّة.. لا تقلْ شيئًا، عليك اللعنة فأنا أعرف كلَّ شيء!»

صاح الضابط الممتعض بجنوده أن يكفّوا عن نقاشاتهم السخيفة.. وقال لهم غاضبًا: «كل ما عليكم أن تفعلوا هو أن تقاتلوا.. كفّوا عن الكلام وقاتلوا فهذا أجدى لكم، أنا لم أرَ في حياتي تيوسًا مثلكم!»

لم يَنبِسْ أحد من الجنود بكلمة.

وسُرعَان ما عادت حِدّةُ المعركة إلى الاشتعال، ووجد الجنود أنفسهم في مواجهة نيران جديدة. وساد جوٌّ من القلق والتردُّد بين أفراد الفوج. كانوا يشعُرون بالتمزق والإعياء. كانوا ينظُرونَ إلى بطاريّة المِدفعيةِ التي تتقدّمُ نحوهم وقد تسمَّروا دون حَراك. وكأنّهم ينتظرون قَدَرَهُمْ.

الفصل الثالث عشر

بدا تقدُّمُ العدوِّ في عين الشابِّ أشبهَ بعمليّة صيد وحشيّة لا تعرف الرحمة. كان يغلي غضبًا وغيظًا. فهذا العدوُّ المجنون لا يترك له دقيقة واحدة للراحة أو حتى للتفكير. لقد قاتل بالأمس واستطاع أن ينجو بنفسه من الخطر بسرعة. إنَّهُ يشعُرُ بحاجةٍ إلى فترة من الراحة التأمليّة لأنّه مُنهَكٌ جسديًا ونفسيًا.

بيْد أنَّ الأعداء لا يعرفون الكَلالَ أو الملل. إنَّهم يقاتلون بسرعة. إنَّهُ يشعر بحِقدٍ شديد على هذا العدوِّ الذي لا يعرف الهَوادة. بالأمس شعر وكأنَّ العالم كلَّه ضدُّه، واليوم يخامره الشعور ذاته. يشعُرُ أنَّ العدوَّ يريد أن يحْشُره ويحشُرَ رفاقَه في زاوية. قال لرفيقِهِ منزعجًا: «إذا استمرَّ العدوُّ في مطاردتنا فلا بدَّ أن نحترِسَ منهم. فنحن لا نستطيع أن نصمُدَ طويلاً».

التفت إليه رفيقه وأجابه ببرودة أعصاب:

ـ «إذا استمرّوا في مطاردتنا فسوف يدفعون بنا إلى النهر».

شعرَ الفتى بالفَزَعِ من هذا الاحتمال، ولم يجد بُدًّا من أن ينكمشَ وراء شُجيرة صغيرة. كانت الربطة القميئة التي ربط رأسه بها ما زالت

على رأسه فوق الجُرح، وكان عليها بُقَعٌ من الدمِ الجافّ. وكان جسدُه يتصبَّبُ عرقًا.

كانت أصابعُه تتمسَّك بعصبيّة ببندقيّته. وتمنّى لو كانت هذه البندقيّة آلة ذات قوّة تدمير هائلة. كان شعوره بالعجز عن الانتقامِ من العدو يجعله يغلي غضبًا وغيظًا.

كانت رياحُ المعركة تجتاح الفوجَ كلَّهُ. وكان الفوجُ يرُدُّ على نيران العدوِّ بقوّة وبسالة. وخُيِّل إلى الشّابِّ أنَّ المقاتلين باتوا أشبه بحيوانات تُساق إلى الموت في هوّة سحيقة مظلمة. وعرَفَ أنّه هو ورفاقَهُ باتوا في وضع حَرِجٍ وأنَّهم يُدْفَعون إلى الخلف. إنّهم يُجبَرون على ذلك بالهجمات الوحشيّة التي يقوم بها عدوُّهم المراوغ. إنّهم يتقدَّمون بسهولة ويخترقون صفوفَهم.

وشعَرَ الشابُّ وكأن بندقيّته قد تحوّلتْ إلى عصا عاجزة وتملَّكته رغبةٌ شديدة في أن يسحقَ هذا الشعور بالانتصار الذي يلوح على وجوه أعدائه. كان قد اتّخذ موقعًا يحميه خلفَ شجرة صغيرة، وعزم على أن يتمترس خلفها أمام الزّحف الغاشم. كان يشكُّ في أن يستطيع جيشُهُ أن يحقق تقدُّمًا في هذا اليوم. ولكنَّ هذا لم يدفعه إلى اليأس، بل صمَّم على أن يُقاتلَ بعزم أكبر. ولكنَّ الحشد الغفير من جنود العدوِّ كان يتدفّق من كلِّ الجهات، حتى إنّه فقد الإحساسَ بالاتّجاهات والمواقع. وأحسَّ باللهب يلفَحُ وجهَه والدُّخان الحارّ

يحرُقُ جِلدَهُ. ولكنّه استمر يقاتل ويُطْلِقُ النار حتى أصبحت سَبطانةُ بندقيّته أشبهَ بكتلةٍ حمراءَ ملتهبة.

وعندما شَعَرَ أنَّ العدوَّ بدأ يتراجع قليلاً أمامه وأمام رفاقه، تقدَّم بسرعةٍ إلى الأمام، مثل كلب يحاول أن يطاردَ فريسة. ولكنْ عندما اضطُرَّ إلى التراجع ثانية مكْرَهًا، حاول أن يتراجع ببُطْءٍ وحَذَر.

وشعَرَ برهة أنَّه يُطلِقُ النار بمفرده فيما الآخَرون حولَهُ قد توقّفوا عن ذلك. كان مُنهمِكًا في القتال وهو في سورة غضبه.

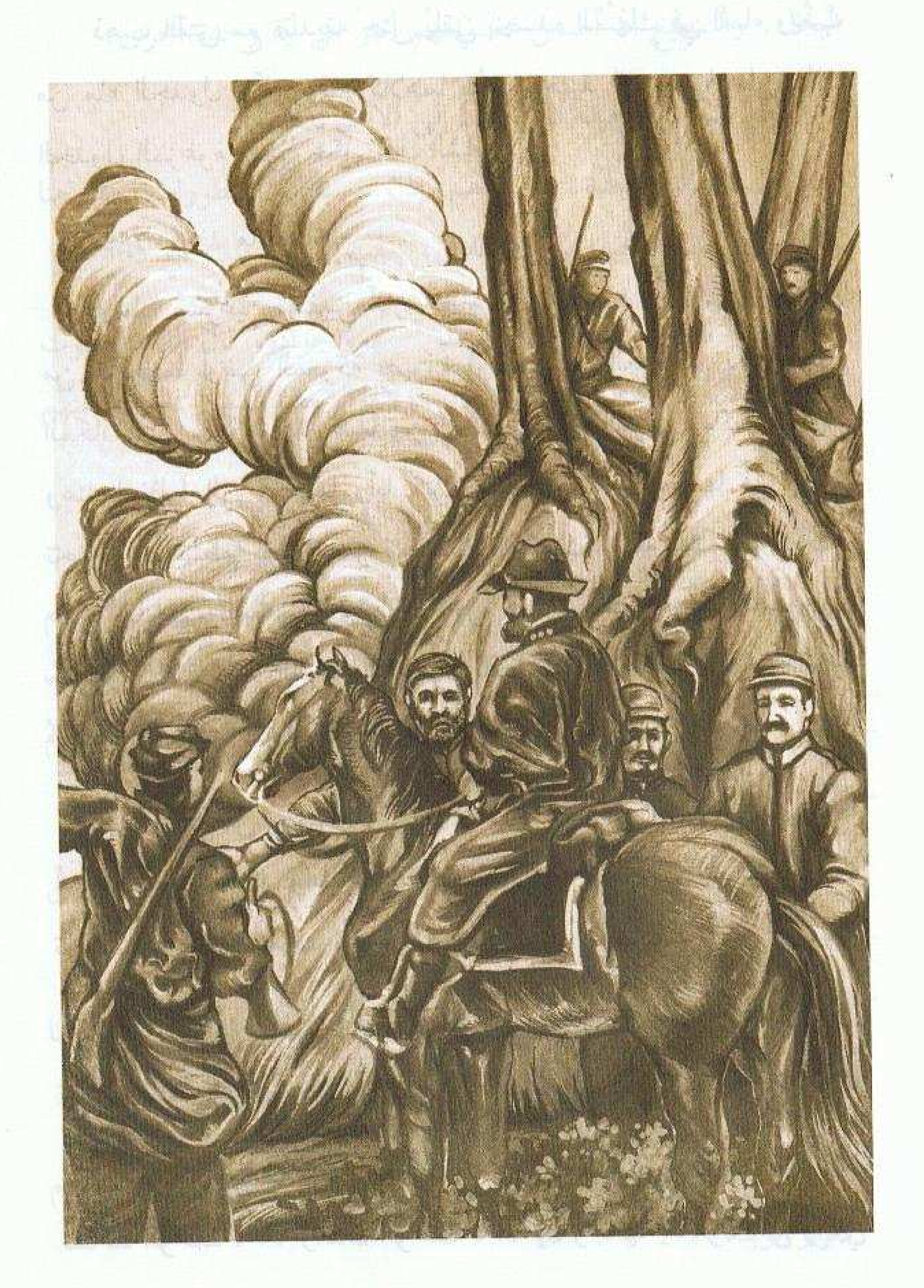
قال له رفاقُه ساخرين: «لم يعد ثمة ما تُطلِقُ النارَ عليه!» توقَّف الفتى عن إطلاق النار، والتفت إلى رفاقه فوجدهم يحدِّقون إليهِ بدهشة وذهول. استفاق إلى نفسه، وعاد إلى رفاقه وألقى بنفسه على الأرض من الإعياء. كان طنينُ المدافع ما زال يرنُّ في أذنيه.

كان الملازم يصيحُ ابتهاجًا. وأخذته نشوة النصر، وقال يخاطب الشابّ: «أقسم بربِّ السماء أن لو كان عندي عَشَرةُ آلاف قطّة متوحِّشة مثلك لحسمت أمر هذه المعركة وانتزعت كبد الأعداء في أقلَّ من أسبوع!» قال ذلك بمزيد من الفخر والخُيَلاء.

همهَمَ بعضُ الرجال وراحوا ينظُرون إليه بمزيج من الدهشة والتهيُّب. فقد كان متحمِّسًا جدًّا في القتال، وكان يُطْلِقُ النيران من دون توقُّف. باتوا ينظرون إليه باحترامِ الآن، ويعتبرونه مُقاتلاً متمرِّسًا يقاتل ببسالة.

هذه الأحداث جعلَتِ الشابَّ يفكِّر في الأشياء مليًا. لقد تكَشَّف له أنّه كان بربريًا، متوحِّشًا. ووجد أن القتال كان شيئًا رائعًا ووحشيًّا وسهلاً إلى حدٍّ ما. وهو بهذا القتال استطاع أن يتجاوزَ صعوباتٍ كان يخالها كالجبال. لقد تلاشت جميعها وسقطت كالأوراق، وهو الآن قد أصبح بطلاً.

كان الضجيج لا يزال يتردّدُ في أجواء الغابة. ومن بين الأشجارِ كان يُسْمَعُ صوتُ رَشَقاتٍ من الأسلحة الخفيفة. واتّجهت سحابة من الدُّخان الأسود نحو الشمس الساطعة في السماء الزرقاء.



الفصل الرابع عشر

هدأ الخط المُرْهَق من القتال بعض الوقت، ولكنَّ القتال عاد فاندلعَ بقوّة حتى بدا وكأنَّ الأشجار ترتجف، وأنَّ الأرض تميد وتهتزُّ تحت وَطءِ أقدام الرجال المندفعين. وكانت أصوات المدافع تُزمجرُ وتصلُ إلى عَنان السماء. كان البقاء في جوٍّ كهذا مستحيلاً.

أُصيبَ أحدُهُمْ بعيار ناريٍّ في جسده وأطلق صرخة ألم قويّة. والتفت رفاقه يتساءلون: «من هو؟ من أُصيب؟»

قال أحدهم: «إنّه جيمي روجرز».

وعندما وقعت أبصارُهم عليه أصيبوا لأوّل وَهلة بالجمود، وكأنّهم يَخْشَونَ الاقتراب منه. كان مُلقًى على العُشبِ وهو يتلوّى من الألم، ويصرُخ بأعلى صوته. وراح يستمطر عليهم اللعناتِ والشتائمَ لأنَّ أحدًا لم يمدَّ إليهِ يدَ المساعدة.

فكَّر صديق الفتى في أن يبحث عن جدول ماء قريب، واستأذن من الضابط كي يَسمَحَ له بالذهاب لجلبِ الماء. وسُرعانَ ما قدّم له الجنود من حوله مشاربَهم كي يملأها لهم، صائحين: «املأْ لي.. املأْ لي».

ذهب الفتى مع صديقه حتى يُلقيَ بجسده المُنْهَك في الماء ويعُبَّ من ماء الجدول عبًا. وقام كلاهما بجُهدٍ جهيد كي يعثرا على ذلك الجدول المزعوم ولكنْ عبثًا. قال الشابّ:

ـ «لا يوجد ماء هنا».

وعادا مُسْرِعَين مُقْتَفِين آثار خطاهما. ولكنَّهما استطاعا أن يكشفا من موقعهما أرض المعركة بصورة أوضح لأنَّ الغبار لم يكن يغطي المكان هنا. كما شاهدا صفًا من المدافع يطلق النيران الداكنة بغزارة. وعندما نظرا إلى قوّاتهما رأيا كُتَلاً بشريّة متداخلة بعضها في بعض تحاول أن تنتظمَ ببُطْءٍ بصورة نظاميّة. وكانت أشعّةُ الشمس تنعكس على أسلحتهم المعدنيّة، وفي المؤخّرة كان ثمّة طريق بعيد يلتفُّ حول مُنْحَدر. كان هذا الطريق مزدحمًا بالمشاة المتراجعين. ومن الغابة الكثيفة كان يتصاعد الدُّخان وهدير المعركة.

ثم وجدا من بعيد قائد الفرقة وحوله عدد من الضبّاط.. وسمعا أحدَهم يقول للقائد وهو على صهوة جواده: «سنُحيل الأرضَ جحيمًا تحت أقدامهم.. سوف نوقفُهم!»

قال القائدُ معلّقًا: «أفترِضُ ذلك». ثم التفت قائلاً: «أيّةَ قوّات تستطيع أن توفّر؟»

أجاب الضابط: «حسنًا أستطيع أن أطلُبَ من الوحدة ١٢ أن تساعد الوحدة ٧٦. وهناك الوحدة ٣٤، إنّ رجالها يقاتلون مثل راكبي

البغال. وأستطيع أن أضمن انضمامهم أكثر من أيّة وحدة أخرى.

نظر الشابّ ورفيقه كلٌّ منهما إلى الآخرِ بدهشة!

قال القائد بحِدّة: «جهِّزْهُم إذن. سأتابعُ التطورات من هنا وسأعطيكَ إشارةً حين يبدأُ الانطلاق، يجب أن يتِمَّ ذلك في دقائق».

وفيما كان يستعدُّ للانطلاق على صهوة جواده، قال القائد بصوت هادىء: «أنا لا أعتقد أنّ كثيرًا من هؤلاء الرجال الذين تتحدَّث عنهم سيأتون».

أحسَّ الفتى أن الضابط كان يتحدَّث عن الفوج كما لو أنّه يتحدَّث عن مِقَشَّة. ربّما تحتاج بعض أجزاء الغابة إلى تمشيط، فهل استخدم الضابط كلمة مقَشّة لهذه الغاية؟ وقال الشابُ في نفسه: «إن للحرب لغتَها الخاصة!» عندما اقترب الاثنان من الخط استقبلهم الملازمُ بغضبٍ قائلاً:

«فليمنغ، ويلسون، كم من الوقت يلزمكما كي تجلبا بعضَ الماء.. ماذا كنتما تفعلان؟»

ولكنّ لهجتَهُ الحادّة والرسميّة تراجعت عندما رأى في عينيهما الكثير من الأخبار والمعلومات التي يريدان أن يتحدّثا بها.

قال صديقُ الفتى مُتلهّفًا: «سوف يجري تعزيزُ قواتِنا.. نعم تعزيزُ قوّتنا!»

قال الملازم بدهشة:

«تعزيزات! إذن سيكون هناك قتال حقيقيٌّ، يا إلَهي، الآن سنشهد قتالاً حقيقيًا!... تعزيزات! يا إلَهي كم سيكون هذا رائعًا!»

بعد دقائقَ قليلةٍ من هذه الكلمات التي أثارت الحميّة بين المقاتلين بدأ الضّباط تعبئةً نفسيّةً للجنود لجعلهم أكثر استعدادًا للقتال والاحتشاد في صفوفٍ متراصةٍ أكثر التحامًا.

تنفَّسَ الجنودُ الصُّعَداءَ في الفوج. أصبحت معنويّاتُهم أعلى وشعروا أنّهم باتوا أكثر التحامًا وقوّة.

ولكن لم يكن أحدٌ يُدْرِكُ حقيقةَ الموقف سوى الفتى وصديقه. فليس كلُّ ما يُقال يتحقَّقُ على الأرض!

الفصل الخامس عشر

حدَّق الشابّ إلى ما يُحيط به من أرضٍ أمامَه. حتى أوراق النباتات والزرع تبدو له الآن وكأنّها تَحجُب القوّةَ والرهبة. كان يعي ويتذكّر ما سمعه من أوامر حول توفير قوات للدعم. إلاّ أنه شعرَ فجأة بأنّ الرجال حوله في حالة إجهاد وإعياء. كان الفصيل يسير إلى الأمام ببُطءٍ مثل حائط متداعٍ. وبدا الفوج وكأنّه يلهَثُ من الإعياء، ولكنَّ الشابَّ شقَّ طريقه واندفع إلى الأمام.

راح يرنو إلى البُعد وإلى أعالي الأشجار حيثُ توقّع أن يلاقيَ العدوَّ، وراح يجري باتّجاهه، وكأنّه يطارد مجرمًا. وكان وجهه ينِمُّ عن إعياء شديد نتيجة ما بذلَ من جهد.

ولمّا كان الفوجُ قد غيَّر موقعه نحو موقع مكشوف بعيدًا عن الغابة فقد أخذت ألسنة اللَّهبِ الصفراء تتجّهُ نحوَهُ من كلِّ صوب. فقد كانت الغابة بمثابة عائق يمنع عنه النار.

تباطأت مسيرةُ الفوج قليلاً، ثم لم يلبثِ الجناحُ الأيمنُ أن تحرّكَ إلى الأمام في حركة تجاوب معها الجناح الأيسر بسرعة. ثم تقدّم

الوسط نحو الأمام بحيث أصبح الفوج كُتلةً واحدةً. ولكنَّ وجود عائق من الأشجار والشجيرات على الأرض أعاقَ تقدُّمَ الفوجِ حينًا من الوقت.

كان صوت هدير قوّات العدوّ مسموعًا وكانت أصواتُ نيرانِ بنادقه تُلعلع في الهواء. وسقط كثيرٌ من القتلى والجرحى في الاشتباكات. وكان الشابُّ ورفاقُهُ متحمسين في القتال. على أنّ الحماسة وحدها لم تكن كافيةً لمواجهة الحديد والنار.

وبعد الاندفاع بدأ التراخي والتعب يظهران مليًا على أفراد الفوج وضبّاطه. وكانوا يتوارون خلف الأشجار العالية وسُحبِ الدُّخان، ويتّخذون كلَّ أسبابِ الحيطة. وفي اللحظة التي أوقف فيها الفوجُ تقدُّمَه ازدادت رشقاتُ النيران من جانب العدوّ. وتعالت سحبُ الدُّخان وأصوات الانفجارات. فيما ظلَّ الفوج مُتَرَبِّصًا في موقف دفاعيٍّ. كانوا في حيرة من أمرهم. وبدا الارتباك ظاهرًا في صفوفهم. كانوا يتبادلون النظرات الزائغة وبدوا في حالةٍ أقربَ إلى الشلل، حالة من الجمود والصمت الغريبين.

وفجأة صاح الملازمُ وكأنَّه استعاد قوته أو استفاق إلى نفسه: «هيّا أيُّها الحمقى.. هيا! لا يمكنكم البقاء هنا يجب أن تتحرّكوا».

وراح يُرغي ويُزبد دون أن يفهم أحدٌ ماذا يريد. وانطلق إلى الأمام وهو يُتابع صياحَهُ وَسَطَ دهشةِ الجنود. واستدار نحوهم وراح

يُمطِرُهُمْ باللعناتِ والشتائم، وجسمُه ينتفض من شدّة الغضب.

كانت وجوه الرجال تدلُّ على فقدانهم أيَّ إحساس بالمسؤوليّة بسبب الموقف الذي وَضَعوا أنفسَهم فيه، وبدا الوضع غير مفهوم لكثيرين منهم.

شدّ الضابطُ الفتى من ذراعه بغضب وهو يُزمجر: «هيّا أيُّها الغبيّ.. لا نستطيع البقاء هنا. هيّا!» وبدا وكأنّه يريد أن يشدَّهُ من أذنيه حتى يدفعه إلى التحرّك. شعر الفتى بغضب شديد إزاء الضابط. ورد عليه بنبرة التحدي: «انطلقْ بنفسك إذن»!

وانطلقا باتّجاه جبهة الفوج. ولحق بهما صديقُ الفتى. وراح الجميع يصيحون: «هيّا.. هيّا. أسرعوا!» واندفع ثلاثتهم كالمجانين كي يصلوا إلى الغابة قبل أن تُصيبهم رصاصات طائشة.

الفصل السادس عشر

عندما رجع الفَتيَان يحملان العلَم وجدا أنَّ معظمَ الفوج قد انهزمَ وتشتّت وأنّ ما تبقى منه كان يتقهقر. ذلك أن الرجال الذين اندفعوا في البداية قد استنفدوا قواهم. وكانوا يتراجعون بِبُطْءٍ وقد شَخَصَت وجوهُهم نحو الغابة فيما كانت بنادقُهم تَرُدُّ على مصادر إطلاق النار. وكان عدد من الضبّاط الذين علت أصواتهم إلى حدّ الصّراخ يصدرون الأوامر.

صاح أحدُ الضبّاط بسخرية مُرّة: «إلى أين بحقِّ الله تتّجهون؟» فيما صاح ضابطٌ آخر ذو لحية حمراء بصوت عالٍ تردّدت أصداؤه في كلِّ مكان: «أطلقوا عليهم النار. . سدّدوا عليهم. مزقّوا أجسادَهم!»

كان هناك الكثيرُ من الأوامر المتضاربة التي يصعُبُ تنفيذها. هذا الضابط يصيح من هنا وذاك يصيح من هناك.

تراجعَ الفوجُ نحو الأشجار اليابسة، وتوقّف ثمّة فترةً من الوقت ليحرق بعضَ الكتل السوداء التي كانت تُعيق تحرُّكه. ثم عاد فاستأنف مسيرته مُلتفًا حول جذوع الأشجار. وما كاد الفوج المُنْهَكُ يصل إلى

أوّل مكان مكشوف حتى تعرّض لنيران شديدة وسريعة. وبدا وكأن الهجمات تحيط بهم من كلٍّ جانب.

كانت الروحُ المعنويّة لمعظم الجنود في حالة مُتردّية. وأوقعهم الهجوم المفاجىء في ارتباك شديد وراحوا يتخبّطون كالمذهولين. لم يكن بوُسعهم أن يجابهوا تلك الهجماتِ الشرسةَ التي تنهالُ عليهم من كلٍّ جانب. كانوا كمن يواجه جدارًا صلبًا من الصّخرِ القاسي. وجعلهم الإحساسُ بأنهم أُكرهوا على قتال مَن لا يستطيعون قتاله يشعرون وكأنّهم خُدِعوا أو تعرّضوا للخيانة.

كان في مؤخَّرة الفوج قِلّةٌ من الجنود لا تزال تُطلق النارَ على العدوِّ المتقدّم. كانوا عازمين على أن يفعلوا كلَّ ما في وُسعهم. وكان الملازم الشابُّ على رأس هذه المجموعة المضطربة غير المنظَّمة. كان ظهره للعدوِّ وأُصيب بطَلْقٍ ناريٍّ في يده.

كان الفتى يمشي بخُطًى متثاقلة ويتلفَّت إلى الوراء ليراقب ما يجري خلفه. وكانت علائمُ الشعور بالهزيمة والغضب ظاهرةً على وجهه. وكان مُفعمًا بالمرارة والغضب بسبب ما وصفه به الضابط، مع زملائه، من أنّهم راكبو بغال. فهو قد اعتبر هذا الوصفَ بمثابة إهانة.

كان الفوجُ أشبهَ بآلةٍ تمشي إلى الوراء. وكانت معنويّاتُ الجنود مهتزَّةً بسبب ما تنامى إليهم من تراجُع رفاقهم وتقهقرهم، وبسبب

وجود عدد كبير من الجرحى. تلفَّت الشابُّ حوله فرأى كتلة من الجنود يتزايد عددها شيئًا فشيئًا حتى وصلت إلى بضعة آلاف.

بدا لهم أنّهم يسيرون في طريق لا نهاية له. وكانوا يشعرون بالرعب وهم يمشون في الضباب خشية أن يضلّوا طريقهم أو يتّجهوا إلى مكان خطر. كما كانوا يتعرَّضون للنيران من مناطق قريبة منهم اعتقدوا أنّها مواقع لرفاقهم. وهذا ما أوقعهم في خوف هستيريّ ويأس قاتل. وراحوا يجْرون هنا وهناك بحثًا عن مهرب، والرصاصُ ينهمر فوق رؤوسهم كالمطر.

وفي غمرة اليأسِ راحوا يبحثون عن أي ساتر يختفون وراءه. فوجىء الجنود الصامتون بصوت الملازم الشابّ يُلَعْلِعُ فجأة قائلاً: «ها هم قادمون!.. عن يميننا، يا إلّهي!»

وانطلقت أصوات البنادق تُزمجِر.. ولم يعد يُسمَعُ صوت الملازم. اتّجهت عينا الشابّ على الفور إلى الاتّجاه الذي عيّنه الملازم الغاضب، ورأى بأمّ عينه أبدانَ جنود العدوّ الشرير تقترب. كانوا قريبين إلى درجة كبيرة حتى إنّهُ كان يستطيع أن يُميّز ملامحهم. ولاحظ أنَّ ملابسهم جديدة ذات لون رَماديّ.

كانت هذه القوّات تتقدّم إلى الأمام بحذر، وبنادقها في حالة تأهّب، عندما اكتشف الملازم الشابُّ مكانهم، ولكنّهم توقّفوا عن الحركة بسبب رمايات الفوج الأزرق. وأدركوا أنّهم لم يتنبهوا إلى قرب عدوِّهم منهم أو أنّهم أخطأوا الاتّجاه.

تبادلت القوّتان إطلاق النار واشتبكتا فيما بينهما كما يشتبك الملاكمان. وظلّ القتال في كرّ وفرّ. وكان الفوجُ الأزرق مُشبَعًا بروح الانتقام بسبب ما كان تعرَّض له من هزيمة وتقهقر. وبدأت رمايات الخصم تضعُفُ شيئًا فشيئًا. وانسحب العدوُّ تاركًا وراءه بعض الجثث.

عند ذاك خرج جنود الفوج الأزرق من وراء سواترهم وراحوا يرقُصون رقصةَ الابتهاج وتتعالى أصواتهم بحميّة وشعور بالنّصر.

واستعاد جنود الفوج روحهم المعنويّة، وأدركوا أنّهم يستطيعون القتال، والتغلُّبَ على مخاوفهمْ وأخطائهم وعلى هزيمة خصمهم. وها هم يستعيدون حماستهم، وينظُرُ بعضهم إلى بعض بعزّةٍ وفخر بعد أن استعادوا كرامتهم.

الفصل السابع عشر

هم يشعُرون الآن بشيء من الطمأنينة لأنَّهم كانوا يعرفون أن ليس ثمّةَ قتال يتهدَّدهم. وبدت الطرق مَرّة أخرى مفتوحةً أمامهم. وأصدقاؤهم من ذوي البِزّاتِ الزرقاء المُغْبرَّة كانوا على مسافة غير بعيدةٍ عنهم. كانت أصواتٌ عالية تُسمَعُ على البعد، إلا أنّهُ في هذا الجزء من الميدان كان يسود جمود مفاجيء.

وظنوا أنّهم باتوا الآن أحرارًا. وتنفست تلك الزمرة المنهكة من الجنود الصُعداء. وعادت وجمعت أفرادها في مجموعات صغيرة كي تستأنف رحلتها.

وفي هذه المرحلة الأخيرة من الرحلة بدأت تنتابُ الأفرادَ مشاعرُ غريبة. كانوا يُسرِعون الخطى بخوف يدُلُّ على عصبيّة. وحتى أولئك الذين كانوا لا يرتعدون أو لا يقدِّرون المواقف حتى في أحلك اللحظات لم يستطيعوا إخفاء قلقهم وخوفهم. وربّما عاودهم الخوف من الموت، أو من أن يتعرّضوا لخطر داهم مفاجيء فيما هم يسيرون في دوريّات آمنة. لذا كانوا يُسرِعون وهم ينظُرون إلى الخلف بتوجُّس.

وعندما اقتربوا من خطوطهم استُقْبِلوا من قِبَلِ الأفراد بشيء من التهكّم. وانهالت عليهم الأسئلة الساخرة:

«أين كنتم بحق الجحيم»؟

«لماذا عدتم؟»

«لماذا لم تبقَوا هناك؟»

«هل كان المكان الذي جئتم منه حارًّا مشمسًا؟»

«هل أنتم ذاهبون إلى البيت يا أولاد. . . ؟»

وصاح أحدهم بسخرية لاذعة:

«تعالَي يا أمّي بسرعة وانظري إلى هؤلاء الفتية».

شعر الفتى بصدمة قويّة من جرّاء تهكُّمِ زملائه وراح ينظُرُ نظراتٍ حادّةً حاقدةً على أولئك الساخرين. وساد جوٌّ من العصبيّة والتوتُّر بين أفراد الفوج، ممّا جعلَ الملازمَ يتوجَّهُ إليهم بالمَلامة بكلمات قاسية.

كان الفتى في تأمّلاته تعتريه الدهشة. فقد اكتشف أنَّ المسافات ضئيلةٌ إلى حدِّ السخرية. وأنَّ الأشجار اليابسة المنتشرة في المكان بدت له قريبة جدًّا. حتى الزمنُ بدا له قصيرًا جدًّا. وزاده دهشةً عددُ الأحداث التي تجمَّعت في مثل هذه الفراغات الضئيلة. لا بدَّ أنَّ الأفكار السحريّة قد بالغت وجسّمت كلَّ شيء.

وفيما الفوج قد اضطجع متداريًا من القيظ والإجهاد، جاء الضابط، الذي وصفهم بأنّهم سائقو بغال، على صهوة جواده يتنطَّطُ

على طول الخطِّ الذي كانوا يرابطون عنده. كان قد فقد قبعته. وبدا شعره الرطب المنكوش غريبًا، وكان وجههُ يطفحُ غضبًا. وكانَتْ عصبيتُهُ ظاهرة من خلال قيادته لفرسه. إذ كان يلكِزُ الجوادَ بقوّة وحشيّة بمهمازَيه. وأوقف الحيوانَ المُجْهدَ بقوّة أمام العقيد مسؤول الفوج. وانفجر على الفَور بكلمات قاسية لم تكن خافية على آذان الرجال. وشعروا فجأة بالخطر إذ كان من غير المألوف لديهم سماعُ كلمات نابية بين الضبّاط.

بدأ الضابط كلامه قائلاً: «أي ماكشيسني، أيَّ عمل أحمق ارتكبْتَ!» وحاول أن يُخْفِضَ لهجةَ صوته ولكنَّ الجنود كانوا يُتابعونه ويدركون ما يريد أن يقول. وتابع الضابط: «أيَّ خطأ فاحش ارتكبْتَ؟ يا إلَهي.. أيُّها الرجل، أنت توقَّفْتَ على بعد مائة قدم في هذا الاتّجاه من نجاح رائع! لو أن جنودك تابعوا السَّيرَ مائة قدم أخرى لكنتَ حققتَ مهمةً عظيمة. أما الآن، فأيُّ حُثالة من حفّاري الطين لديك الآن!»

التفت الرجال الذين صاروا يتابعون الحديث بأنفاس لاهثة الآن بأنظارهم نحو العقيد. كان لديهم اهتمام شديد بمعرفة ردِّ فعله. وراحوا يراقبون الموقف باستثارة بالغة.

هزّ كتفيه وقال بهدوء: «حسنًا يا سيادة القائد، لقد تقدّمنا بقدر ما استطعنا» صاح القائد مُغْضَبًا: «تقدمتم بقدر ما استطعتم؟ يا إلَهي،

أحقًّا؟ لم تكن المسافةُ بعيدةً، أليس كذلك؟» قال ذلك وهو ينظُرُ إليه نظرة احتقار باردة. وأضاف: «لم تكن المسافة بعيدة كما أعتقد. كنتَ تريدُ أن تصنع تحوُّلاً لصالح البيض»... ولوى القائد عُنُقَ جواده وانطلق بعيدًا.

قال الملازم، الذي كان يستمع إلى المقابلة بين العقيد وقائده بغضب مكتوم، بنبرة هادئة: «أنا لا أبالي مَنْ يكون هذا الرجل، سواء أكان قائدًا أم لا، إذا كان يدّعي أن الفتيةَ لم يقاتلوا جيّدًا هناك. إنَّهُ أحمق ملعون». قال العقيد بقوّة: «أيُّها الملازم. هذا شأني».

انتشرت الأخبارُ حول تَعرُّضِ الفوج للتوبيخ في كلِّ أرجاء خطِّ الجبهة. واعتبر الأفرادُ هذا التوبيخ خطأً كبيرًا من جانب الجنرال القائد.

إلاّ أنَّهُمْ بدأوا يفكّرون فيما إذا كانت جهودهم ضئيلة بالفعل. وتوصّل الشابُّ إلى قناعة أن في كلام الجنرال تحقيرًا لهم.. لكلِّ الفوج. كان يغلي من الغضب، اقترب الصديقُ من الشابِّ وفي عينيه حزن وقال: «أتساءلُ ماذا يريد. هل كان يظنُّ أنّنا ذهبنا إلى هناك لنلعب بالحجارة؟ أنا لم أرَ في حياتي مثل هذا الإنسان!». تابع الشابُّ كلامه وكأنَّه استخلص فلسفة ما: «لعلَّه استنتجَ أنّنا مجموعةٌ من الخراف، لا لشيء، إلا لأنّنا لم نفعل ما أردنا أن نفعله. إنَّ من المؤسف أن يموت الجدُّ هندرسون البارحة. كان يعرف أنّنا فعلنا أكثر

ما بوُسعنا وقاتلنا جيّدًا. إنها مسألة حظٍّ عاثر ليس إلاّ!» أجابه الصديق: «ينبغي أن أقول ذلك». وبدا كأنَّه أُصيب بجرح عميق من جرّاء الظلم. وتابع الصديق: «ينبغي أن أقول أنَّ حظَّنا كان تعيسًا! القتالُ ليس لعبًا ومُزاحًا. والمرء عندما يقاتل قد ينجح وقد لا ينجح. أفكّر أن أكون دائمًا في المؤخَّرةِ وأترُك مهمّة القتال للآخرين ليواجهوا مصيرهم».

قال الفتى محاولاً أن يلاطف صديقه ويخفِّف من غضبه: «حسنًا. كلانا قاتل جيّدًا. ولكنَّ ذلك الغبيَّ يقول: إنّنا لم نفعل كل ما في وُسعنا!»

أجاب الصديق بحدَّة: «نعم قاتلنا جيّدًا.. وقد سمعت بأذني من أحد الرفاق في الفوج أنّ كلينا أبلى بلاءً حسنًا.. ولكنَّ هذا الجنرال يهذي، إنه مجنون!»

الفتى: «إنّهُ غبيّ! لقد جعلني أشعر بالجنون. لا تأبَهْ له!» وكان الفتى يريد أن يتابع تعليقه وهو في سورة غضبه، ولكنَّهُ توقَّف بسبب تحلُّقِ عدد من رفاقه الجنود حوله. قال أحدهم بحماسة:

ـ «أوه فليمنغ. ينبغي أن تعرف!»

ـ «أعرف ماذا؟»

ـ «ينبغي أن تعرف أنّ العقيد قابل الملازم المسؤول عنك.. وجرى ذلك أمامنا.. سأل العقيد:.. بالمناسبة من ذاك الذي كان يحمل العلم؟ وأجابه الملازم: إنه فليمنغ.. إنَّهُ فتى محبَّب. وقال

العقيد: حقًّا إنه رجل جيِّد جدًّا. لقد حافظ على العلم عند خطِّ الجبهة. لقد رأيته، فقال الملازم: نعم... ومعه رفيق اسمه ويلسون. وكان يقوم بهذه المهمّة أيضًا إلى جانبه. وسأله العقيد: أينَ هما؟ فأجابه الملازم بأنّهما في مقدمة الفوج.

فأثنى عليهما العقيد، وقال إنّهما يستحقّان ترقية.

سعِدَ الاثنان عندما سمعا هذه الرواية وتبادلا نظرات ملأى بالبِشْرِ والسعادة كما شعَرا بالامتنان العميق للعقيد وللملازم الشاب.

الفصل الثامن عشر

عندما بدأت الغابةُ تطلق الحمم ثانية على قوات العدو شعَرَ الشابُّ بثقة هادئة بالنفس. وابتسم حين رأى كيف كان أفرادُ العدو يحاولون تفاديَ القذائف التي تنهال عليهم بشتّى الوسائل. ووقف يتابع بانتباه كيف بدأ الهجوم، ضدَّ جانب من خطٍّ دفاع العدوِّ، يُحدث فجوةً نصفَ مستديرة في تلّة مجاورة.

كما شاهد فوجين يتحاربان في معركة قصيرة مع فوجين آخرين. كانت هذه الأفواج تتبادل القصفَ في أرض مكشوفة. وكانت قوّة النيران شديدة وسريعة. ولكنّ القصف المتبادَلَ لم يكن بقصد الهجوم، بل كان أشبه بمباراة لكرة القدم.

وفي الاتّجاه الآخَرِ نظر الشابُّ فوجد لواء عسكريًّا يحاول بقوّة طرد العدوِّ من الغابة. وبعد ذلك لم يعد يرى شيئًا، ولكنّه كان يسمع ضجيجًا هائلاً آتيًا من الغابة. وبعد وقت قصير خرج اللواء من الغابة إلى العراء ثانية وبدا في وضع جيّد، بل كان مزهوًّا لأنّه استطاع تحقيق أهدافه.

وعند المنحدر إلى اليسار كان ثمّةَ صفٌّ طويل منَ المِدفعيّةِ الثقيلة تقذف بالحُمَمِ العدوَّ المتستّر في الغابة الواطئة. وكان العدوُّ بدَوره يرُدُّ بنيران مدفعيته. وكانت طلقات مدفعيّتِه تُحدِثُ دوائر ملتهبة قرمزيّةَ اللون مصحوبة بدُخان كثيف. وخلف هذا التشابك بالمدفعيّة كان يقبع منزل هادىء. وكان يرى بعضَ الرجال من حوله يتراكضون هنا وهناك.

استمرَّ هذا التشابكُ بين الأفواج الأربعة، كلُّ فوجين في جانب، بعضَ الوقت. وكان من الواضح، أنّهُ لا نيةَ عند أيِّ طرف للالتحام المباشر. ذلك أنَّ ذاكَ التراشق بنيران المِدفعيّةِ، رغم قوّته وكثافته، لم يلبث أن خفّ تدريجيًا إلى أن توقّفَ. وارتفع الصياحُ في جانب الفريق الأزرق وارتفعت الأعلامُ وَسطَ الدُّخان ممّا جعل الشابَّ يعتقد أنّه الفريق الفائز الذي استطاع إسكات مدفعية خصمه.

وساد بعض الهدوء. إلاّ أنّهُ الهدوء الذي يسبِقُ العاصفة. إذ ما لبث أن انطلقت نيران المدفعيّة عند المنحدر في رسالة تحذير. وتردَّدت أصوات القذائف في الغابة. كانت تنطلق بسرعة مذهلة محدثة دويًّا هائلاً يصل إلى عَنان السماء واستمرّتِ الاصطدامات المتقطّعة على طول الخطوط. ومع استمرار انهمار القذائف شعر الفتى بما يشبه الصمم ولم يملكْ إلا أن يضع يديه على أذنيه.

وعند منحدر يُفضي إلى طريق رأى الفتى هجمات متقطِّعةً وعنيفةً

لرجال يتقدمون تارة ويتقهقرون أخرى في صورة موجات مندفعة.
وكانت كلتا المجموعتين تُطلقُ النار على الأخرى بعنف، على أهداف محدَّدة. وكان القتال سجالاً بينهما. وفجأة رأى الفتى موجة من مقاتلي الفريق الأزرق تندفع بقوّة وشراسة نحو دفاعات الفريق الرَّماديّ وتَقْتَحِمُها وتُحرّرها وتتركها يباباً. وكان الجنود في اندفاعهم يطلقون صيحاتٍ جنونية.

انطلق فوجُه المُنهَكُ باندفاع جماعيٍّ لا حدود له عندما حان الوقت المناسب. وعندما جوبِهَ برصاص العدوِّ انفجر بركان غضب رفاقه بصيحات بربرية تعبر عن الغضب والألم معًا. وكان يواجههم ستارٌ كثيف من الدُّخان والنار.

اقترب خَطُّ هجوم العدوِّ إلى مدى قريب وخطير. وكان من الممكن رؤية وجوههم المُكَشِّرة والمغبرَّة بسهولة، هم مندفعون بخطوات كبيرة نحو السياج المتعرِّج. تسمّر رجال الفوج عند رؤيتهم هذا الخطرَ الداهمَ وكفّوا عن كيل الشتائم. وساد صمت رهيب، قبل أن يستفيقوا إلى أنفسهم ويرفعوا بنادقهم ويطلقوا النارَ بغزارة على أعدائهم. لم ينتظروا الأوامر حتى يُطلقوا النار، فإزاء استشعارِ الخطر المدلهمِّ كان عليهم أن يتصرّفوا بسرعة من تلقاء أنفسهم.

ولكنَّ العدوَّ سارع إلى الاحتماء بخطِّ السياج المتعرِّج بمهارة فائقة، وراحوا من ذاك الموقع يتابعون إطلاقَ النار على أفراد الفوج الأزرق.

حفَّز أفرادُ الفوج الأزرق هِمَمَهُمْ وطاقاتِهم للقتال الضاري، وكشَّروا عن أنيابهم. واندفعت رؤوسٌ كثيرة فوق أمواج الدُّخان الكثيفة. وكانت الصيحاتُ المبتهجة للعدوِّ المحتمي وراء السياج تُسمع. أما رجالُ الفوج الأزرق فكانوا صامتين ولكنَّهم كانوا مصمِّمين على الاحتفاظ بالأرض وعلى إخماد أصوات أولئك الجنود المبتهجين وراء السور. قاتلوا بسرعة وبوحشية يائسة.

وعزم الشابُّ على ألاّ يتزحزح من مكانِهِ مهما كلَّفَ الأمر. وبدا له أنَّ انتقامه النهائيَّ والمطلق من أعدائه لن يتحقَّق إلاّ على جُثّتِهِ في ميدان المعركة. إنّهُ يريد أن يبرهن أنَّهُ ليس من «سائقي البغال» أو «الحافرين في الوحول» كما وصفهم الملازم.

أُثخِنَ الفوجُ بالجراح والدماء، وبدأت بعض الرؤوس تتهاوى بين أفراد الفوج. وأُصيبَ الرقيبُ العجوز في وَحدة الشابِّ بإصابة بالغة في وجهه وانبثق الدم من فمه بغزارة. وراح يصرُخ بقوّة وكأنّ الصراخ يمكن أن يُنْقِذَه ممّا هو فيه. رآه الشابُّ يتقهقرُ ويكاد يسقط وقد خارت قواه، فهبَّ لنجدته طالبًا الإسعاف.

سقط آخرون أمام أقدام رفاقهم. واستطاع بعض الجرحى أن يزحف ويعود القهقرى، فيما تسمَّر آخرون لأنّهم غير قادرين على الإتيان بأيّة حركة. كذلك تسمَّرَ الملازمُ في مكانه في المؤخَّرة، وكان يمطره باللعنات على عدوِّه، ولكنَّ لعناته لم تفِدْه في شيء. فقد كان الوضع في الفوج أقرب إلى الهزيمة.

الفصل التاسع عشر

جاء العقيدُ راكضًا على طول الخطِّ الخلفيّ. وكان ثمّة ضبّاطٌ آخرون يتبعونه. كانوا يصيحون: «ينبغي أن ندحرهم.. ينبغي أن ندحرهم». كانوا يصيحون بامتعاض وكأنّهم يتوقّعون ثورة ضد هذه الخطّة من قِبَلِ الرجال. بدأ الشابُّ، عند سماعه هذه الصيحات، يدرُسُ المسافة بينه وبين العدوّ. كان يقوم بحسابات غامضة. كان يرى أنّهم إذا كانوا يريدون أن يُثْبِتوا أنهم جنودٌ أشدّاء فعليهم أن يتقدّموا إلى الأمام. أمّا إذا بقوا في مكانهم فسيكونون في خطر ماحق، وفي جميع الظروف فإن التراجعَ إلى الخلف سيثير كثيرين. إنّ أملهم يَمْثُل في دفع خصومهم بعيدًا عن السياج.

كان يتوقّع أن يُساق رفاقُه على ما هم عليه من إعياء سوقًا نحو الانقضاض. ولكنّه عندما التفت إليهم اكتشف بدهشة أنّ لديهم الرغبة في ذلك. وساعدت كلماتُ القيادة الحماسيّة أمام الجنود على تحفيز هِمَمِهِمْ على التقدُّم بخطوات سريعة. كان ثمّة قوّة جديدة غير متوقّعة في حركة الفوج، أو ما يشبِهُ استعراض القوّة الذي يسبق الضعف

النهائيّ. كان الجنود يَعْدون بسرعة، وهم يشتعلون حقدًا، كأنما يريدون أن يسارعوا إلى تحقيق نجاح مفاجىء قبل أن تتلاشى حماستهم الغامرة. كان اندفاعهم نحو السياج شديدًا وسريعًا نحوَ مجموعة من الرجال في ملابسهم الزرقاء المغبرّة. اندفاعٌ أشبه باستعراض للتهوُّر الشديد.

شعر الفتى بنفسه وكأنّ روحَه روحُ مجنونٍ متوحّش. كان مستعدًّا لتقديم تضحيات كبيرة، وللشهادة الكبرى. لم يعُد لديه الآن وقت للتفكير أو تحليل الأمور، ولكنّهُ كان يعرف أنّ الرصاصاتِ المنطلقةَ نحوه يمكن أن تكون الشيءَ الوحيد الذي يحول دون بلوغه المكان الذي يجاهد للوصول إليه.

كان يبذُلُ كلَّ ما في وُسعه. ولم يكن يرى أمامه سوى كُتَلِ الدُّخان وألسنة اللهب، ولكنّه كان يعرف أن السياج العتيق لفلاح غائب يقع خلفها، وتحتمي خلفه أجساد الجنود ذوي اللباس الرّمادي.

وفيما هو يعدو خطرت في ذهنه خاطرة. فقد توقَّع صدمة عنيفة عندما تلتحم أجساد الجنود المتقاتلين بعضُها ببعضٍ. وسيكون هذا الالتحام جزءًا من معركته المجنونة هذه. كان الفوجُ المندفعُ يُوشِكُ أن يُحدِث أثرًا مثل أثر المنجنيق. وهذا ما جعله أكثر اندفاعاً وجريًا من رفاقه، الذين كانوا يطلقون هتافات شديدة الحماسة.

لم يكن يرى حتى الآن أنّ كثيرين من الجنود المعادين ينوون انتظار الضربة. ولكن في جزء من الخطّ الدفاعيّ كان ثمّة جماعة عنيدة لا تبدي حَراكًا. كانت تكمُنُ خلف أعمدة وقُضبان.

اقترب إعصارُ الجنود الزُرْقِ كثيرًا حتى بدا أنّ التحامًا مخيفًا بالسلاح والأيدي بات وشيكًا. بيد أنّ الكتلة التي تندفع كالدوّامة من الرجال ذوي الثياب الزرقاء واجهت عَقَبةً كأداءَ بالقرب من ذاك الموقع، كما واجهت سلسلةً من الرمايات السريعة والفعّالة إلى درجة قاتلة. وكان التحامٌ فظيع بين مجموعتين إحداهما تهاجم بقوّة والأخرى تدافع بشراسة.

استطاع صديق الشابّ اجتياز العائق بقفزة بهلوانيّة وانقضَّ على العلم كما ينقضُّ الوحشُ على فريسته. وقام برفعه بقوّة وهو يصيحُ ببهجة الانتصار.

في ذلك المكان الذي تحقّق فيه النجاح كان ثمّة الكثيرُ من الابتهاج والصياح والهتافات. كان الرجال يرقُصون ويهتِفون بنشوة بالغة. تم اعتقالُ أربعةٍ من الرجال في ذلك الخطِّ الدفاعيِّ وصاروا بمثابة أسرى حرب. وتحلّق حولهم بعض الرجال من الفريق الأزرق.

أحد المأسورين كان يُعاني من جرح عميق في قدمه، وقُدِّمَتْ له المعالجة. فيما تحمّل مأسورٌ آخَرُ كان يبدو صغيرًا في العمر مُصيبتَهُ بكثير من الصبر. وراح يتحدَّثُ مع آسريه، ويتفرّسُ في وجوههم

وعيونهم. تحدّثوا عن المعارك والأوضاع. وكان ثمّة اهتمام من كلا الجانبين تجلّى في وجوههم وهم يتبادلون وجهات النظر. وكان يَسُرُّ جماعة الفريق الأزرق أنْ يسمعوا بعض آراء الجانب الآخَرِ الذي كان بالنسبة إليهِمْ مجهولاً وموضِعَ تكهنات.

أمّا الأسير الثالث فكان ذا طبع سيّىء. كان رزينًا وهادئًا. وكان جوابه على كلِّ الأسئلة التي طرحت عليه: «اذهبوا إلى الجحيم!»

أمّا الأسير الرابع والأخير فكان صامتًا دومًا، وكان يُشيح بوجهه نحو جهات غير محدَّدة. وبدا من نظراته أنّهُ كان في حالة اكتئاب شديدة. والحقُّ أنَّ جميعهم، الأسرى الأربعة، كانوا يشعرون بالعار لأنّهم أُسِروا.

بعد أن احتفل الرجال بانتصارهم بدرجة عظيمة جلسوا يرتاحون من عناء القتال عند حافة السياج.

كان ثمّة أعشاب طويلة. اضطجع الفتى عليها لينالَ قِسطًا من الراحة، وليرتاحَ من حمل العلم. وجاء إليه صديقه مُفْعَمًا بشعور الرضى والفخر. وجلسا جنبًا إلى جنب فَرِحَين يُهنِّىء أحدُهما الآخر.

الفصل العشرون

بدأتِ الأصواتُ المُدوِّية التي امتدّت على طول خطِّ الجبهة في مواجهة الغابة تخفُتُ وتصبح متقطِّعة. كما أن تبادل طلقات المدفعية استمرَّ ولكن من مسافات بعيدة، بيد أنَّ تبادلَ رشقات الرمايات توقَّف كليًا. وشعر الفتى وصديقهُ، وهما يتلفتان إلى ما حولهما بشيءٍ من القلق أو الاعتياد الذي أصبح جزءًا من حياتهما، بشيء من الارتياح. كانا يريان بعض التغيير يجري بين قوّات الفوج، وكانا يتجوّلان هنا وهناك. وفجأة توقّف الشابُ وقال: «وماذا الآن؟ أنا مندهش»

فردّ صديقهُ: «أعتقد أنّنا سنخرج من هنا ونعبرُ النهر».

وظلاّ واقفين يترقّبان. وبعد فترة قصيرة تلقّى الفوجُ أوامرَ بالتراجع عن مواقعه. لم يكن أفرادُ الفوج راضين عن هذا التغيير المفاجىء. وأبدى كثيرون انتقادهم له. عادوا أدراجهم ببطءٍ وتراخٍ عبر الحقل الذي كانوا قد اخترقوه قبل ذلك باندفاع جنونيّ. وظلَّ الأفرادُ يمشون إلى أن التقوا بباقي الفوج. وتجمَّعَ اللواء بكامل أفراده ضمن الصفوف واتّجه نحو غابة على الطريق. كانوا كُتلةً من الأفراد التي يغطّيها التراب والغبار، يمشون متثاقلين في طريق مُوازٍ لخطوط العدوّ.

مرّوا بجانب منزل أبيض عتيق فوجدوا أمامه مجموعات من رفاقهم الذين كانوا مضطجعين حوله ينتظرونهم.

عند هذه النقطة من المسيرة انعطفت الفِرقة بعيدًا عن الحقل واتّجهت تشُقُّ طريقها نحو النهر. شعر الفتى بالارتياح عند الاقتراب من النهر، وقال لصديقه: «حسنًا... ها قد انتهى كل شيء». قال صديقه وهو يتلفَّت إلى الخلف: «نعم إنّهُ كذلك».

ظلَّ الفتى فترة أسيرَ الحيرة والقلق. فقد تعرّض ذهنه لمتغيرات عميقة ولكنَّهُ يدركُ الآن أنَّ إطلاق النار والرد المعاكس أصبحا من مخلَّفات الماضي. لقد كان حيث الدم والحقد الأسود. وها هو قد نجا. وهو يستمتع بهذه الحقيقة.

وراح يستعرض في ذهنه أعماله وإخفاقاتِه وإنجازاتِه. لم يكن آسِفًا على شيء، بل إنّهُ كان راضيًا عن أعماله وأدائه. هذه المنجزات التي شهدها رفاقه والتي يفتخر بها شَهِدَتِ الكثير من التحوُّلات. كان سعيدًا وهو يستعيد في ذاكرته تلك الأصواتَ والمواقف. ورأى أنَّهُ كان فتًى ممتازًا، وأنَّ رفاقه كانوا راضين عن أعماله، ويعبّرون عن ذلك باحترام. وتذكَّر على نحو خاصٍّ كلمة ذلك الملازم الأحمق. «لو أنَّ عندي عَشَرَةَ آلاف قِطٍّ وحشيٍّ مثلك لمزّقت العدوَّ في أقلَّ من أسبوع». إلا أنّهُ في غمرةِ استمتاعه بما حقَّقه من نجاحات لم ينسَ قصّةَ فرارِه. وشعر بغُصَّة وبشيء من الخجل في أعماقِه. كما شعَرَ

بحزن عميقٍ عندما تذكّر كيف قضى رفيقُه الطويل الذي راح ضحيّةَ حربٍ لا طائلَ تحتها.

وفيما هو يمشي على طول الطريق ضِمْنَ مسيرة رفاقه عاودته رؤيته الخاصّة عن القسوة. لقد كانت تُلازمه على الدوام وتُعتِّم على النواحي المشرقة في حياته. وكان كلّما قلَّب أفكاره لا يستطيع أن ينسى شبح الفرار من ميدان القتال. ومع هذا فإنَّ كلَّ ما شهده وما مرَّ به من أحداث كان تجربةً غنيّة، وهو غير نادم على تلك الفترة الّتي قضاها في الجيش. لقد تعلَّم الكثيرَ وبات رجلاً حقيقيًّا. نعم لقد اكتسب الرجولة وهو لن يتخاذل أمام الصعاب مهما كانت.

وابتسم الشابُّ وهو يشعُرُ أنَّ العالمَ بات عالمه. لقد تخلَّص من جحيم المعارك ومن كوابيس الماضي.

الاستثمار التربويّ

أ ـ في المناقشة والتحليل:

١ ـ ما الّذي يبعث جوَّ الأُخوّةِ بينَ الجنودِ في أثناءِ المعركة؟

٢ ـ ما الّذي جعَلَ الشّابَّ يستعيدُ ثِقتَهُ بنفسِهِ بعد شعوره بالضّآلةِ والخوف؟

٣ ـ في هذه القصّةِ سَرْدٌ واقعيٌّ لجانبٍ من الحربِ الأهليّةِ الأميركيّة. هل أعجبَتْكَ هذه الواقعيّة؟ هل استطاعَتْ أن تشُدَّكَ إليها؟ ما العناصر المشوِّقةُ فيها إنْ وُجِدَت؟

٤ ـ هل استطاعَ الكاتبُ أن يحلِّلَ نفسيّةَ الشّخصيّةِ المحوريّةِ، شخصيّة هنري فليمنغ؟ أوضح معالم هذه الشّخصيّةِ كما عرفتها في مواجهةِ الحرب.

٥ ـ هل وَجدْتَ أنّ شخصيّةَ الإنسانِ تختلفُ في الحربِ عنها في أيّامِ السِّلمِ أوضحْ ذلك من خلالِ شخصيّةِ هنري فليمنغ.

٦ ـ كيف كانَتِ البدايةُ في هذه القصة؟

٧ ـ اذكُرْ موضِعَ العُقدةِ من سيرورةِ هذهِ القصّة.

٨ ـ ما الحلُّ الّذي انتهتْ إليه؟

٩ ـ ما الغاية التي وُضِعَت من أجلها هذه القِصّة؟

ب ـ في الشّرح والتّفسير:

١ ـ اشرَحْ كلاًّ من التعابيرِ التّالية:

ـ يخامِرُهُ شعورٌ بالأسى:

....

ـ أَجْهَشَ بالبُكاءِ:

....

ـ يَتَرَنّحُ مثلَ شجرةٍ آيلةٍ إلى السُّقوطِ:

....

ـ تَمتَقِعُ وجوهُهمْ خَوفاً وتوجُّساً:

....

ـ تناثروا في الغابةِ:

....

ـ لم يَنْبِسْ أحَدٌ ببنتِ شَفة:

....

ـ كان يغلي غَضَباً وغَيظاً:

....

ـ كانَ القتالُ سِجالاً بين الطَّرَفين:

....

٢ ـ فسّر معانيَ الكلماتِ التّاليةِ مُعتَمِداً على أحَدِ المُعْجمات:

تقاعُسٌ: ....

دَريئةٌ: ....

فَرائِصُ: ....

تسري: ....

المَأزِقُ: ....

سَورةٌ: ....

يرنو: ....

الحُمَمُ: ....

اليَبابُ: ....

كَأْداءُ: ....

جـ ـ في اللّغة والنّحو:

١ ـ هاتِ أضدادَ الكلماتِ التّالية:

المَشْؤومة ≠ .... الأَمَلُ ≠ .... مُنْهَكٌ ≠ ....

التّشاؤمُ ≠ .... أجدى ≠ .... الغَضَبُ ≠ ....

المَلَلُ ≠ .... نَصْمُدُ ≠ .... المُراوِغُ ≠ ....

٢ ـ هاتِ مرادِفاً لكلٍّ ممّا يلي:

أَخْفَقَ = ... الأسى = ... مُنْهَكٌ = ...

قُشَعريرةٌ = ... هِراوةٌ = ... كارثةٌ = ...

اليَأْسُ = ... تَنْقَشِعُ = ... الغَضَبُ = ...

٣ ـ هاتِ الجمعَ لكلٍّ منَ الأسماءِ التّاليةِ مضبوطًا بالشّكل:

حافَةٌ ← .... جَريحٌ ← .... جَذْوى ← ....

شُجَيرةُ ← .... الأَزْرقُ = ... هِمّةٌ ← ....

٤ ـ هاتِ المفردَ لكلٍّ ممّا يلي مضبوطًا بالشّكل:

المُشاةُ ← .... أبالِسةٌ ← .... تُيوسٌ ← ....

جُنْدٌ ← .... جُنودٌ ← .... بِيضٌ ← ....

٥ ـ ضعِ المضافَ إليهِ المناسبَ في المكانِ الخالي ممّا يلي:

صوتُ .... قَعْقَعَةٌ.

صوتُ .... هديرٌ.

صوتُ .... ثُغاءٌ.

صوتُ .... فحيحٌ.

صوتُ .... هَمْهَمَةٌ.

٦ ـ لمَ كُتِبَتِ الهمزةُ بالطّريقةِ الّتي كُتِبَتْ بها في ما يلي:

تُضِيءُ: ....

مَلأى: ....

بُطْءٌ: ....

القَميئَةُ: ....

٧ ـ أعرب ما يلي:

ـ سوفَ نَهْزِمُهُمْ شرَّ هزيمةٍ.

ـ يتلوّى الجريحُ ألماً.

....

....

....

....

....

....

....

....

الفهرس



وشاح الشجاعة الأحمر

ستيفن كران

دار العلم للملايين